بيت اللوز

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: بيت اللوز
اسم المؤلف	: غادة العبسي
الغلاف	: عمرو الحو
لوحة الغلاف	: إهداء الفنان مجدي الكفراوي
التدقيق اللغوي	: خالد رجب عواد
مدير التحرير	: محمد محمد السنباطي
رقم الإيداع	: ٢٠١٨ / ٣٤٠١
الترقيم الدولي	: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٧٨٦ - ١٣٩ - ٧

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ ـ مدينة نصر ـ القاهرة ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

دار غراب للنشر والتوزيع

بيت اللوز

تأليف

غادة العبْسِي

دار عزّ للنشر والتوزيع

بيت اللوز

عزيزي القارئ..

قياس الزمن في هذه الحكاية بالبيض..

البيضة رقم ٣٩٥

أحبُّ أن أسميَها «بيضة» لا «بويضة»، فهذا الاسم يُعيد إليّ دومًا متعة التمنّي: ماذا لو كان في استطاعة الأنثى البشرية أن تبيض كسائر الطيور؟ لم أحلم بالطيران ولستُ مشتاقة إلى التحليق بجسدي الثقيل فوق الجبال بل إنني أكره الطائرات، وهل لو وُهبتُ جناحين لتركتني الأرض التَّعسة وما فيها؟ الأرض التي بأسرها مختزلة داخل تكويني الـچيني، أحياؤها وموتاها كلاهما راقدون في نواة كل خلية، يسبحون في طينةٍ مبللة، في دمي، يلقون التحية على بعضهم البعض وأحيانًا يتشاجرون وقد يرتكبون الجرائم أو يتآمرون ضدي! لذلك لم أفكر قط في الهروب لأنه ليس خيارًا متاحًا من الأصل..

ولكن أعترفُ أنني أغبط تلك الحمامة عندما تُخرِج بيضاتها منها، وقد تخلصت من هذا القلق الذي ساور أنثى من معشر البشر شهريًّا لأنها لا

تستطيع أن ترى بويضتها وقتما خرجت من مكمنها ومشت طريقًا متعرجًا بمفردها يشبه مغارات الثلج القديمة، حتى تصل إلى الرحم، ثم تنتظر أحدهم كي يلقي عليها التحية ثم «نظرة فابتسامة ...إلخ وحتى اللقاء»، والذي قد يخلق كائنًا جديدًا، إنسانًا آخر..

(قد) هي المشكلة، تلك الاحتمالات التي لا يمكن حسمها بمجرد إنجاز عملية التلقيح التي يسمونها الجنس، فكيف تجزمين بأن من بين أظهر كل تلك النُّطَف السابحة في ظلمة تجويفك الداخلي نصفَ ابن ينجح في الوصول إلى بويضتك الصغيرة؟ هل يراها؟ أم تفشل في جذبه مثل أمها التي لا تعجب الرجال؟ أظن أن بويضتي تجلس ببؤس الشحاذين تنتظر أن يُحسَن إليها مستندة إلى جدار الرحم، والنطَف تبحث عمن تنتظرها كفتاة ليل غَنِجَة، أظن أن هذا سبب عقمي الحقيقي الذي لم يستطع طبيبي كشفه! دخولك مرحلة الشَّكِّ تلك هو نموذج مُصغَّر من الجحيم، احتمالية أن تكوني حاملًا قبل ظهور أي علامة مؤكدة أو ألا تكوني كذلك، مثل المعتاد من عشر سنوات..

البيضة رقم ٣٩٦

ابنتي المحتملة، أنا بصدد محاولات مضنية كي أراكِ، أحاول جاهدةً أن أبدو كامرأة جميلة مثيرة للاقتحام، رغم الجزع والآلام الناتجة عن العقاقير وشعوري المزمن بأني بالون مُنتفخ بهرمونات فائضة عن حاجتي وحاجة زوجي أيضًا، رغم التجاعيد التي عرفت طريقها إلى وجهي، يومًا ما عندما تأتين سأخبركِ بكل شيء دون خجل، لن تتصوري ما فقدتُه من أجل ذلك وأنا في الطريق إلى ملاقاتك، صارت روحي شائهة، لا يهم، ولكن أخشى فقط أن أورثَك إياها، أحضّر لمجيئك من الآن، أخترع الحكايات التي وددتُ لو قرأتها أو قُصّت عليّ، أُعيدُ صياغة الحكايات التي لم تعجبني، فالوحوش يا صغيرتي ليسوا مسوخًا، «أم رجل مسلوخة» وقع عليها الزيت المغلي وهي تطبخ لأطفالها الجائعين فتحمّلت ألم الحرق كي تكمل إعداد الطعام لهم، عندما تكبرين ستعرفين أن كل امرأة تواظب على الطبخ تُخفي تحت ملابسها على الأقل حرقًا أو ندبة قطع بالسكين في إبهامها، أما «أم ٤٤» أم كريمة، ربّة تشبه بوذا صاحب الألف يد من كثرة ما تقوم به من أعمال منزلية في الوقت

نفسه، أما العفاريت والجنيات فلا داعي للخوف منهم لأنهم قرناء طيبون للبشر الخبيثين، ولا تبالغي في كراهية الشيطان، تذكري أنه مؤمن بالله عندما تخطئين..

لستُ واثقة يا ابنتي المحتملة، تمامًا مثل كل شهر، وشعوري بعدم اليقين تسلل إلى كل شيء حولي، وتحوّل الأمر إلى وسواس، فأنا لستُ متأكدة في أغلب الأوقات، لستُ متأكدة من نظافة البيت، أو نظافة نفسي، من حبّه القديم لي قبل أن نهرم معًا، (نعم، لقد هرمت أمك، لا ريب يا ابنتي، المرأة التي تتخطى الثلاثين تهرم، اعلمي ذلك أيضًا)..

أريد أن أصدقك القول، أتمنى أن ينبت لكِ عضو ذكري في اللحظات الأخيرة قبل تحديد نوعك، قبل أن يطبطب طبيب الأشعة على أبيكِ كأنه يعزّيه ويقول: إنها أنثى، ويطلب أبوك منه التأكد مرة أخرى، كوني ذكرًا يا ابنتي أرجوكِ قبل أن يخدعوكِ وتصدقيهم، قبل أن ترثي حدب أمك من كثرة ما حَمَلتِ دون حملٍ!

البيضة رقم ٣٩٧

لا أستطيع أن أعرف كم تبّقى لي من بيض في سلتي، ولكني أعلم جيدًا أن ما يتبقى ليس أكثر مما قد ذهب، جملة يقولها من بلغ من العمر أرذله، ألم تكن ذات الرداء الأحمر تحمل بيضًا في سلتها؟ أم تفاحًا؟ أم شيئًا آخر، لا أذكر، المشكلة ليست في البيض فقط، أنا أحلم برحمي، أراه مصلوبًا وينزف دمًا فاسدًا من أسفل، الأوتاد التي تسنده من الجانبين تتمزق وتتهاوى، يختل توازنه من الأمام فيسقط.. يسقط مني!

ولكن البيضة هي الأصل، هي حوّاء التي احتوتهم جميعًا، بيضة مريم المجدلية الحمراء في عيد الفصح، الأماني المنقوشة فوقها في سلال من السعف تنتظر إشراق الشمس لتتحقق في (عيد شموس)..

ربما تحققت أمنيتي هذا الشهر فأغني لوليدي: «يا قبسًا من الشمس» كما يفعلون في النوبة، يصنعون الحلوى ويُطعمون منها النيل والأطفال، ربما..

البيضتان رقم ٣٩٨ و ٣٩٩

خروج بيضة جديدة يعني بالضرورة أن التي سبقتها قد ماتت، البيض يَخِزُ عند خروجه من مكمنه، كان ذلك يحدث لي منذ صباي وتلاشى إحساسي بالوخز تدريجيًّا بفعل آلام قرحة المعدة المزمنة وقولوني العصبي، الوجع أدرك كل شيء ولم يعد هناك رفاهية تحديد مكانه، الأسوأ الآن أنني لم أعد أشعر بوجع أصلًا، كأن بطني كومة لم تعد تنتمي لجسدي ولا يعنيه أمرها، ولكن على أي حال نجح المنشّط تلك المرة في إخراج بويضتين صحيحتين، شعرت بالفرح وأنا أشاهدهما عبر شاشة السونار، كأنهما توأم في طورهما الأول، وتركت نفسي للحلم بأني سألدهما، وعشتُ أعراض الحمل التي أحفظها عن ظهر قلب، «لا ينبغي أن أحمل أثقالًا، ولا بد من استرخاء نفسي وبدني، وليذهب أيضًا الهاتف المحمول إلى الجحيم بأضراره التي قد تمتدُّ إلى طفليّ»..

الأوهام العِذاب!

البيضة رقم ٤٠٠ و الأخيرة

أشعر بالوحدة بعد أن رحلت شقيقاتي..خلا بيتي الذي بحجم حبة اللوز منهن، وفي عالمنا الصغير، الصغرى هي الأكثر حكمة لأنها تمكث حتى النهاية، تشاهد كيف يتحول بيتنا الخصيب إلى صحراء مجدبة، فبمجرد خروجي -كآخر بويضة هنا- للمرة الأولى والأخيرة سيتحول مكاني إلى صفرةٍ كئيبة، والقناة التي عليّ أن أجتازها ستجف تدريجيًّا بعد أن تلفظني بعنف لأسقط داخل رحم أمي، وسأرقد هنا مثلما فعلت إخوتي من قبل، أنتظر كي ألاقي هذا الكائن الذي سأمتزج به لنصبح خلقًا واحدًا جديدًا، لا أدري كيف سأتعرف إليه أو كيف سيعرفني هو، ولكن لماذا لم يحدث ذلك مطلقًا مع أيٍّ من شقيقاتي؟ المشكلة أن ما يجري في تلك الزاوية لم يكن يصل إلينا في بيت اللوز، لم تعد قط أيٌّ منهن لتروي ما حدث..

انتظرتُ طويلًا ولم يحدث أي شيء، ربما لا يمكنني أن أحدد هذا الوقت ولكن أعرف أنه لم يتبقّ سوى القليل، هرمت أنسجتي الرقيقة فجأة وبدأ الماء يجد طريقًا عبر جداري الحصين، هل هكذا ينتهي كل شيء؟ أختنق،

السم يسري إلى كل ذرة بي، السُّم مني، يبدو أنني قتلتُ نفسي يا أمي، أتمنى ألا يصلكِ هذا الخبر أبدًا، وألا تسمعي هذا الصوت الرهيب، صوت انتحار بيضتك الأخيرة قبل الأوان.. في الأربعين من عمرك!

سامحيني يا أمي..

(الزائر الجديد)

عندما تسكن مدينةً صغيرة يصلُها عددٌ قليل من الباصات بالمدينة الكبيرة تصير ملتزمًا بشكل ما، فتستيقظ مبكرًا جدًّا وتقرر مسبقًا ماذا ترتدي قبل ذلك باثنتي عشرة ساعة على الأقل، ينضبط يومك فتعتاد النوم مبكرًا أيضًا ثم تتخلص تدريجيًّا من إحساسك بالحنق على زوجتك النائمة وهي تنعم بالدفء بينما تضطر أنت إلى أخذ حمامك اليومي فجرًا، وهذا مريح على أي حال لأنك ستجد ماءً ساخنًا يصل إليك بسهولة في هذا الوقت دون أن يجذبه جيرانك المحترمون أصحاب «الموتورات» القوية والتي لا تترك لك أحيانًا سوى خيط رفيع يشبه لبن السرسوب! سوف تتحسن علاقتك بالطبيعة لأنك أول من يُلقي تحية الصباح على الأشجار الزاحفة فروعها إلى سور نافذتك وعلى العصافير التي لا يحلو لها التغذي إلا على نباتاتك القليلة في الشرفة فتفضّل طعمها على كل هذا الخَضار المحيط والذي يبدو لذيذًا بلا شك.

تضحك ممرورًا كلما تذكّرت كيف كان والدك يحثك في الصغر على الصحو مبكرًا حتى في أيام الإجازات: انهض، الأرزاق توزع الآن، كنت تندهش مما يقول وتبحث عن رد مناسب وأنت مغمض العينين، سيتهمك الجميع فور النطق به بأنك «عديم الربابة»، أي رزق يلاحق فتى لم يتجاوز الخامسة عشرة وما زال يمد يده لأبيه قائلًا: «المصروف»، تضحك ثانيةً بمرارةٍ أشد لأنك تجاوزت الثلاثين وما زلتَ تمد يدك له حتى الآن مطأطئ الرأس تريد أن تنظر في عينيه بحدةٍ ولوم: أنا أصحو فجرًا كل يوم يا أبي، أول من يصحو في العقار وربما في مدينتي كلها ..إذًا هل هذا هو رزقي الذي أستحقه؟

من المفروض أن يدعم النهوض مبكرًا صلتك بالله..ومن المفروض أيضًا أن تفهم أن الرزق لا يؤتَى استحقاقًا ..ولكن تلك الحياة لا تستطيع أن تضمن فيها شيئًا واحدًا مهما تحرّيت الأسباب، حتى الجنة، فلربما شابت نياتك شبهة سيئة وأنت تصلي الفجر، أُتراك لو لم يكن لزامًا عليك الوجود في مقر عملك في تمام الثامنة صباحًا لكنتَ نهضت من فراشك الدافئ لكي تتوضأ وتؤدي الصلاة؟ أنت تصلي -قسرًا- وتعي ذلك جيدًا وحسمت الأمر مع نفسك منذ وقتٍ طويل فليس من المعقول أن تهدر ثوابًا عظيمًا بلا تكلفةٍ تُذكر، لا تستطيع أن تنكر أنك في كل مرة تشعر بانحطاط ما كلما فرغت من سورة تقرؤها ولم تتذكر متى بدأتها ومتى انتهيت منها! أو عندما تضطر إلى إضافة ركعة أخرى لأنك غير واثق بعدد الركعات المطلوبة في كل مرة!

أنت مهموم طوال الوقت، وتفكّر في المتبقي منه، وفيمَ انقضى ما مضى من حياتك! وساخط حتى على الطير الذي يستكثر عليك بعض الزهور في شرفتك فيأكلها، كل محاولاتك باءت بالفشل وأنت تبذل الجهد في إقناع نفسك بأنك مثل أغلبهم يعمل بلا طائل يذكر، تهبط السلم وتشد على صدرك سترتك حتى ذقنك وتسير عشر دقائق حتى تصل إلى محطة الباص..

في مدينة صغيرة يستقل أغلب سكانها الباص تعتاد وجوههم وتصير مألوفة لك، قد يساورك القلق أحيانًا كثيرة إذا غاب أحدهم عن المحطة فتجد نفسك تسأل عنه هذا الآخر الذي لا تعرف اسمه كذلك: «أين فلان الذي لا أعرف اسمه؟ لم يأتِ حتى الآن» فيجيب بأنه لا يعرف ولكنه قلِقٌ أيضًا!

تستقل الباص وتجلس في مقعدك المعتاد دون أن يزاحمك أحد عليه، السائق وبائع التذاكر والركاب جميعهم في حالة تجانس تام، تتخلل أنفك رائحة الفلافل التي تملأ المكان، والخبز الطازج والطرشي، وعطور الرجال والنساء المختلطة ببعضها البعض، الصابون الرخيص ومثبّت الشعر اللزج، وحتى «أبو فاس» الذي دهنه أحدهم على ظهره طوال الليل ملفوفًا بجرائد ليطرد عن جسمه الرطوبة، الجميع يتساءل عن الشخص الغائب الذي لا أعرف اسمه ولكننا نعرف أنه مريض بالكلى ويغسل ثلاث مرات أسبوعيًّا..

ونقرر -كالمعتاد- أن نكتب أرقام هواتفنا لبعضنا البعض ثم ننسى كلما اقتربنا من زحام المدينة الكبرى حتى يصل كل منا إلى محطته..

طرأ شيءٌ جديد على الباص هذا الصباح، لم أدرِ ما هو بالضبط في البداية، ولكن ثمة دفئًا يتسلل إلى مقعدي رغم برد الشتاء ورغم الفراغ الذي أشعر به دومًا، فأنا مثل هذا الباص في أيام العطلات وفي الساعة الأخيرة قبل منتصف الليل، وأنا هذا الخواء الصادر من آخر رشفة في علبة الصودا الصفيح، أجلس بجوار النافذة المفتوحة ذات الزجاج المكسور والتي يتجنبها الجميع، يجتاح وجهي الهواء البارد وأنا أستمع إلى المقطوعات الموسيقية التي يعجُّ بها هاتفي «سام» كطقسٍ يومي لا أتخلى عنه..

«سام سونج» أو «سام» صديقي الوحيد تقريبًا، اعتدتُ اختيار موسيقاي العربية المفضلة ونستمع إليها معًا في الطريق اليوميّ إلى العمل، ولا أدري ما الذي حدث في هذا اليوم فوجدتني أختار لسام هذه المرة لا لنفسي، فكرتُ في موسيقى يابانية من بلده المنشأ، وبضربة حظ على جوجل ظَهَرَت لي وبدأتُ أسمع!

كانت تلك اللحظة تحديدًا متزامنة مع أخرى لاحظتُ فيها الرائحة الجديدة التي ملأت الباص، لو أن للحنان عطرًا! تلك الرائحة في مقدرتها أن تروي ما حدث جيّدًا، كان عليها النزول مبكرًا وكان لا بد من إيقاظ

طفلها لكي ترضعه من صدرها قبل ترك البيت، ثم تركه هو نفسه في حضانة بالقرب من عملها مع كمية مناسبة من اللبن الصناعي والحفّاضات، أستطيع أيضًا أن أفهم أنه اليوم الأول لها في العمل بعد إجازة وضع..

شعرتُ كأن «سام» استحسن مقطوعة «فانتازيا»، أوقن أحيانًا من قدرته على السمع، أراه كذلك يحدّق إليّ بعينيه الصفراوين الضيقتين ولا يغمضهما أبدًا، له جفنان علويان مشدودان أكثر اتساعًا من حدقتيه، تغطيهما خصلات شعره السوداء الناعمة، يبدو سام بريئًا جدًّا، مدهوشًا على الدوام، وله جفنان آخران في الأسفل منتفخان ككرتي بنج بونج، سام يبدو اليوم مريضًا بالكلى، يشبه كثيرًا الرجل الغائب عن الباص، ولكنني واثق أنه لا يستطيع شم الرائحة الجديدة، ربما أرادت أن ترضعه فوق حاجته من اللبن، تريد أن تشبعه منها قدر المستطاع فتقيّأ الطفل بعضه، تجمّد اللبن في مكانه وجفّ فوق مريوله السماوي..

يزداد الباص ازدحامًا مع مرور الوقت، حتى وصل إلى ذروته فلم يكن هناك موطئ لقدم أخرى، تظاهر أغلب الركاب القدامى الجالسين في مقاعدهم بالنوم وتصاعد العرق من تحت الملابس الثقيلة فطغى على الرائحة الجديدة، وعندما شرع الركاب في النزول كنتُ شغوفًا لعودتها سريعًا، كان سهلًا أن أرسم صورة للطفل النائم وشعرتُ كأن أناملي تتحسس بشرته الناعمة على نغمات البيانو..

فاحت رائحة اللبن الجاف من الرضيع مجددًا، خطر لي أنها أوشكت على النزول لأن دموعها تتساقط فوق بقعة اللبن ذاتها فوق مريوله، ففاحت الرائحة أكثر! عاد الباص للجفاء والبرودة مرة أخرى، نزل جميع الركاب وكنّا أنا و«سام» نسمع «فانتازيا» مرة بعد مرة، واقشعرَّ بدني مع دخول الوتريات في كل مرة والتي اجتاحتني مثل رائحة الزائر الجديد.. حاولتُ تحميلها للاحتفاظ بها ولكن ذاكرته قد امتلأت عن آخرها، هاتفي سام يعاني ضعف الذاكرة، يؤرقه سيف الساموراي العاجز لأنه لا يقتل أحدًا ولا حتى فواكه النينـجا في اللعبة المختزنة به..لن يحتمل هاتفي مزيدًا من المقطوعات اليابانية الحزينة أو تترات المسلسلات الكورية الشجيّة، لن يحتمل أيضًا نشيج أمٍّ أفرطت في إرضاع طفلها هذا الصباح!

(مانوليا)

مضى أكثر من ثلاثة أشهر قبل أن أزور صديقي في بيته بحي الوايلي، وكعادتي أتوقف عدة مرات في أثناء الصعود لاهثةً ثم أستأنف ذلك العمل الشاق مع حقائبي الثقيلة، أتذكّر مع كل خطوة شعوري وأنا طفلة ينثني فخذاها وركبتاها بمشقّة فوق سلالم البيت العتيق كمن يتسلق سفح جبل شاهق لا يحسب نفسه يصل إلى قمته أبدًا، يمرّ بمخيلتي طيف القط الأسود المخيف الذي كان يستقبلني مع أبي قرب صندوق القمامة وينتفض مذعورًا عند رؤيتنا فيندفع نحوي هابطًا إلى أسفل وذيله المنتصب يحتكّ بجوربي الأبيض القصير بورداته الحمر المتناثرة على مسافات متساوية تاركًا إياي في حالة مشابهة لذعره..

وقفتُ أمام الباب القديم أنتظر أن يفتح لي صديقي بعد رنَّ الجرس الممتد، بشوقٍ لرؤية وجه «چانوس» البشوش، هكذا أسميتُ «جَمال» رجل البدايات والنهايات، رجلٌ يقف لي عند كل بوابةٍ في حياتي ..

-مانوليتي البيضاء ..تأخرتِ، افتقدتُك..

-قد أتتْكَ تعتذر..سامحني ..

-ليس قبل أن تقولي ما الخبر!

برز لي في ملابسه الرياضية الجذابة وعطره الفواح الذي آلفه جيدًا، عبرتُ إلى الداخل وبصري معلّق بشرّاعة الباب الزجاجية، يأكلني الشعور ذاته في كل مرة أزوره فيها كي أفتحها وأدع ما علق بين الشرّاعة وهيكل الباب الخشبي وأسياخ الحديد المثبتة فيه من وسخ وغبار وخيوط العنكبوت الممتدة ليسقط كله على الأرض.

دلفتُ إلى المطبخ بالحقائب البلاستيكية فحاولتُ أن أغضّ الطرف عن الفوضى وأحبس أنفاسي عن رائحة بقايا الأطعمة المنبعثة من الحوض الأبيض المستطيل في المنتصف وعن جحافل النمل المتكتّل في أكثر من موضع على الأرفف الخشبية المتهالكة.

خرجتُ وأنا أزفر ما في صدري من هواء محبوس، أخفي انزعاجي وتغيُّر وجهي ساعلةً فأتذرّع بضيق التنفس بعد معاناة الصعود:

-لقد شختُ وبيتك ما زال فتيًّا مثلك لا يُقهر..

قهقه عاليًا وهو يرمقني بخبث:

-كم أنتِ رقيقة يا مانوليا..لا ينال منكِ أبدًا مكر البشر، لا تهربي! ما الذي أخّركِ عن حبيبك؟

-اكتئاب..

-أرجوكِ قولي شيئًا جديدًا..

-حسنًا، اكتئابٌ ..يعاودني..

-وهل شفيتِ؟

-تعالَ هنا، أين قهوتي أيها المراوغ؟

قفز من فوق كرسيه الهزّاز: هدية أبي إليه من عشر سنوات، مطفِئًا سيجارته -والتي التهمها في أقل من دقيقة- في المطفأة البلاستيكية هرمية الشكل، الملونة بنقشٍ رمادي شعبي قديم الطراز، ابتسمت وأنا أستحضر اشمئزازي من تلك المطفأة منذ صغري وكيف أسهمت مبكرًا في كراهيتي المزمنة للتدخين بمنظرها العالق بذهني حتى الآن وهي تعجّ بالقذر المختلط بما حَوَته من أعقاب السجائر وبذور الفاكهة المأكولة معجونةً برمادها وأغلفة الحلوى وبقايا طعام نصف ممضوغ بصقه ابن صديقي الأصغر، أفلتُّ ضحكةً وأنا أتذكر أيضًا كراهيتي لدراسة نظريات التطور بأكملها بسبب ذلك العالِم الذي خمّن أسباب الحياة الناشئة من قميصه المتسخ المبتل بالعرق مع عدة سنابل من القمح، لم أكن أدرك حينها أن تلك المطفأة نموذج مصغّر من الحياة، كما بدا لي بعد وقتٍ طويل أن ذلك العالِم الأحمق كان على حقٍّ.. إلى حدٍّ ما.

اتجه إلى منضدة صغيرة جانبية تستقر فوقها السبرتاية النحاس وملحقاتها، تناول زجاجة السبرتو الأحمر وبدأ يملأ السبرتاية منه باحتراف كعادته. في كنكة القهوة الصغيرة وضع البُن الداكن ثم نزع الغطاء عن قارورة السكر الزجاجية، حدّق إلى محتواها قليلًا وبدأ يصطاد النمل الساري بين مكعبات السكر فيحطّمه بأنامله، قذف مكعبيْن ومزج الخليط بالماء ثم قرّب المنضدة إلى حيث نجلس، هو في كرسيه الهزاز وأنا على المقعد «الأسيوطي» الأخضر..

-هل تدري أنني لا أتناول مكعبات السكر إلا هنا لديك؟ أين مخزونك منه؟

-يا مانوليتي الصغيرة! متى تكبرين؟ افتحي هذا الدرج.

هُرعتُ إلى عُلَب السكر المرصوصة كأنها تنتظرني، فتناولتُ واحدةً بسرعة ثم عدتُ بها إلى المقعد وأنا أستحلب مكعبًا باستمتاع. كان يراقبني في إشفاقٍ وحبور، تجاذبنا النظرات لوقتٍ ليس بالقصير، أتأملُّ وجهه في ضوء الغرفة الأصفر، هاتان العينان لا يزال بريقهما متوهجًا كالنار ترقد تحت الماء، تضيقان عند الجانبين بفعل التجاعيد الصغيرة والتي تزداد إذا ابتسم فتزيده بهاءً، وشعره الأبيض متكثف في مقدمته كالجليد إذا انتثر في نهاية الأغصان، أنظر في أنفه الدقيق وشفتيه الرفيعتين الدكناوين، أكاد ألتهم

وجنتيه المتقرحتين دومًا في الشتاء، مرّرتُ أناملي عليهما بحرصٍ خشيةَ أن أؤلمه:

-لماذا لا تضع من الدواء الذي جلبتُهُ لك؟

-مانوليا، كنتُ أفكّر في ذلك قبل أيام، أما بعد تلك اللحظة فلن أضع الدواء أبدًا . لقد شُفيتُ..

-أيها الثعلب الماكر، هيا أكمِل ما بدأناه آخر مرة..

-وما هو؟

-هل نسيت يا جمال؟! حديثك عنهن..

-مانوليتي الحبيبة، ماذا تريدين؟

-أريد أن تحكي لي كل شيء، كما كنتَ تقص على أبي ..

-كفي عن استحلاب السكر وارشفي قهوتك إذن قبل أن تبرد ..

-سأفعل، هيا احكِ لي..

عاد إلى الخلف فوق كرسيه مشبّكًا كفيه، وبسط قدميه إلى الأمام ثم ترك جسده لأرجحة الكرسي الخشبي، أما أنا فقد تخلصت من سترتي الثقيلة وأسندتُ يديّ تحت رأسي على مسند المقعد الصلب، أنتظر أن يمشي بأصابعه فوق شعري، قفزت أمامي صورة قديمة لهذا البيت، ومن سكنوه،

ظلت الستائر القديمة في مكانها، استحال بياضُها إلى اصفرار ثم الثقوبُ الصغيرة المشغولة بماكينة «تريكو» إلى رقعٍ أكثر اتساعًا، أذكر جيدًا محتويات الشرفة الداخلية، مجموعة «الكراكيب» المكدسة في أحد الأركان، والدراجة ذات الثلاث عجلات، وكرسييْن من البامبو أظنهما قد تلفا الآن ثم مصباح صغير في الأعلى، يلتف حوله البعوض .

-إنهن كثيرات يا مانوليا، كانت أولاهن جارتي «منى» والتي كتبتُ فيها ديواني الأول ولم أكن قد تخرجتُ بعد من الكلية، درعميٌّ غضٌّ تشرق عليه كل صباح فتاة دون العشرين بقليل، تلقي عليه التحايا من النظرات الخاطفة المرتبكة الخجولة، آهٍ يا مانوليا من ارتباك فتاة دون العشرين بقليل إذ تحاصرها عينا رجلٍ يحبها، فوران الأنوثة التي لم تنضج بعد في قِدرٍ من صلصالٍ ليّن انعجنت مادته بماء الورد، ذلك الذي كانت تفوح رائحته من غسيل «منى» إذ تبسطه فوق الحِبال، والتي كنت أشعر وكأنها التفت حول رقبتي لو غابت عني.

نظر إلي في حنان ثم بدأت أصابعه تعانق خصلات شعري، همّ بإشعال سيجارة فأمسكتُ يده قبل أن يفعلها فرفع يدي إلى ثغره وطبع قبلةً طويلة فوقها..

غابت أصابعه في شعري الفاحم، ورحتُ للتذكار من جديد، لاشمئزازي من أظفار ابنه الأكبر الطويلة المتسخة، ما بين زرقةٍ وسواد، تشاجرنا ذات مرة فغرز أظافره في لحمي مخربشًا إياي، كم كنتُ أمقتُه!

-و«هويدا»؟

-من قال لكِ عنها يا بنت؟ بالتأكيد أبوكِ.. رحمة الله عليه..

-رحمة الله عليه..

-صدقيني، كانت امرأة عادية للغاية، نصفها استكانة والنصف الآخر كآبة، لم يكن فيها شيء أفتقده لأستعيده في غيابها كلحنٍ يلح على الذاكرة، أو مفاتن ساحرة تدخلني عوالمَ مضيئة من اللذة، بدت مترهلة في كل شيء.. في جسدها وفي مشاعرها الفضفاضة التي تستوعب الأفراح والأتراح في بلادة ..أمر واحد فقط حملني على التعلق بها: رأيتُها تلتقط قرصًا مسكّنًا بإصبعيها ثم وضعته في فمها، دفعَت رأسها إلى الوراء قليلًا في حركةٍ رشيقة قبل أن تشرب كوبًا كبيرًا من الماء وكأنها ترغِم القرصَ على الهبوط إلى أسفل، شعرتُ بمعاناتها في أثناء ابتلاع القرص الصغير وبدأتُ أحدق إليها فأصدق أنني أمام كائن رقيق لا قِبَل له بالألم، وقتها شردت: هل أحببتُها حقًّا أم خشيت فقط أن أتركَها فأسبّب لها جرحًا يؤلم ضميري؟

داهمتني تلك الصورة فجأة وبقوة: كنّا نشاهد حلقة من مسلسل تليفزيوني لا أذكر اسمه، حدث ذلك منذ سنوات طويلة ..في أواخر الثمانينيات، تأهّب الممثل في زي الإعدام الأحمر إلى دخول غرفة تنفيذ الحكم، والموسيقى التصويرية الحزينة تعزف قصيدة رثاء في خلفية المشهد، ما زال صوت هذا الممثل صارخًا: «أنا مظلوم» يرن في أذنيَّ، سمعنا طرقًا عنيفًا على باب البيت، فتح صديقي فوجد أمامه جمعًا من الضباط والأمناء والعساكر، حدثت مشادة كلامية بينه وبينهم، انزويتُ خلف أبي خائفةً، أما زوجته «سهير» فقد تجمدت في مكانها، رأيتُهم يكبّلون صديقي بالأغلال، خُيّل إليَّ أنه مكبّل من رأسه حتى قدميه، لمعان الحديد غاص في دمعي، وصوتُ خشخشة الأصفاد جعلني أضغط على أسناني بغيظٍ مع صراخ طفليه.

-ما بكِ يا حبيبتي؟

-لا شيء، أكمل من فضلك..

- «حُور» ..تلك كانت جنتي على الأرض، بعد أن صدر لي أربعة دواوين سافرتُ إلى تونس، صادفتها في إحدى الندوات هناك ومنذ الوهلة الأولى عرفتُ أنها ليست كمثيلاتها، تعرفين يا مانوليا، لها إطلالة ملكة، إذا اقتربَت قرأتُ في عينيها الهزيمة، حتى إذا ابتسمَت فكنتُ أنا المهزوم..استطعتُ أن أراها جيدًا عبر نافذتين شفافتين والكحلُ يؤطرهما، ثم تعافيتُ من أثر

الضحكة الرنانة التي توزعها على الحاضرين بكرمٍ بالغ، غسلتُ وجهها من المساحيق في مخيلتي وتحمّمَت أمامي بماءٍ طهور سبحَ فوقه بخورٌ مشتعل داهم أنفي، عندما ابتسمت لي وحدي وهي ترشف قهوتها -مثلك الآن- كانت عيونهم تلتهم ساقيها، وقتئذٍ أدركتُ أن «حور» ليست ملكية عامة كما كنتُ أحسبها، كانت فقط ملكيةً ضائعة..

-كتبتَ فيها ديوانًا هي الأخرى..

-مانوليا، شيئان لا سلطان لامرئ عليهما: النساء والسجن ..ألم أعلّمكِ من قبل سطوة حرف السين؟

-بلى، وغواية حرف الغين أيضًا! مَن منهن كانت «غينًا"؟

- بعد خروجي من السجن تحررتُ من كل شيء تلقائيًّا، من قيودي كلها، عدتُ لأجد كل الأشياء في أماكنَ أخرى غير التي اعتدتُها، الأسرة في بلدٍ آخر، تفصلنا الحدود وفروق التوقيت وحكم نهائي بالطلاق، الأصدقاء في مجموعة صور قديمة وقد هجروا أُطُر الوفاء جميعها لصديقهم المعتقل، حتى سنوات عمري غادرتْني إلى عدة أوراق موثقة من الدولة تُثبت أنه قد صار لي صحيفة سوابق..أتدرين يا مانوليتي؟ تغيّر الشِّعرُ في حلقي، أسِنت الكلماتُ في فمي، إلا هي.. بقيَت مثل نبضٍ سرمديٍّ في قلب الكون..

-ثريا؟

-نعم ..ثريا..سأقول لكِ سرًّا يا مانوليا، لا يغوي الرجال المنع، بل يغويهم المنع بعد المنح..

-حرفٌ واحد قد يغيّر كل شيء ..

-هو ذاك .. منحتني ثريا كل شيء، أغرقتني هِباتُ الغرام المباركة في أغوار روحها وجسدها، تجاوز الأمر الالتقاء الجنسيّ بين وحيدين في عتمَة الليالي، مع ثريا تعلمتُ مراقبة الحيوانات والطيور، التفاصيل الصغيرة التي تختلط فيها الآدمية بالوحشية بالملائكية، صنعنا معًا شفرة خاصة بفضل لماحيتها، كتبتُ أجمل قصائدي بين نهديها، وسطرَت هي أبهى رواياتها عاريةً في أحضاني، أعذب لياليها كانت ليلةً حارة انقطع فيها عنا الماء والنور معًا، أحضرت «ثريا» زجاجةً من الماء المثلج وأفرغتها في صحنٍ عميق، بمنشفةٍ ناعمة غمرتها في الصحن ثم عصرتْها، مرّرت أليافها المبتلّة الباردة فوق جلدي المتعرّق ببطء، وبمروحتها الإسبانية العريضة أخذَت تضرب الهواء لتعطفه عليَّ فترطّب مسامي، كنتُ تحت أناملها محاربًا تتطهَّر جراحُه الغائرة قبل أن يموت، أجهشتُ بالبكاء من حنانها تمامًا مثل يومٍ فعلتُ فيه نفس الشيء من قسوة هجرانها!

أستطيع أن أميّز هذا الشعور جيّدًا، أنا أغار من «ثريا»، ومنها هي بالذات أكثر منهن، أعرف أنه ما زال يعشقها حتى الآن، أدرك أيضًا أنه حرّف اسمي

من «منال» إلى «مانوليا» ليستدعي جرس حرفيها الطائرين مرات ومرات، «ثريّا» ليست سوى «إيمثيوس» القمر النِّد لـ«چانوس»: قمري أنا، لا شيء يقدر على كسر جاذبيتهما الفريدة، هل ستبدأ دوامة التساؤلات القديمة مرةً أخرى كالعادة وتدور تروس الحيرة من جديد؟ هل أحبه حقًّا أم هو مجرد امتداد لحبي لأبي: صديقه الصدوق وكل ما كان لي في هذا العالم؟ هل هو اعتياد السنوات الطويلة؟ أم أحبُّه كتحايلٍ أخير كي يظفر أحدهم بآخر قطرة حياة؟

-أظن أتى دوري لأتحدث ..

-(ضاحكًا) لم تكن اللعبة تتضمن حديثك عن مغامراتك العاطفية يا مانوليا، وهل تلك الصغيرة لديها مغامرات خارج خزانة الملابس بصحبة ابن الجيران؟

-لدى الصغيرة سِرٌّ دفين ..حرف السين ثانيةً ..السر أيضًا له سطوة ..ساعدني على التخلص منها..

-فنجانًا آخر من قهوةِ حبيبك؟

-لا (متناولةً قطعة أخرى من السكر، تضعها فوق لسانها وتتركها لتذوب ببطء تلك المرة ولا تستحلبها، تشرع في حديثها فتخرج الكلمات الأولى من فِيها أضخم بعض الشيء، تصارعها الدموع) ..

«ذلك الرجل أظن أني سأموت قبل أن يقول لي: «أحبكِ»، أفكّر طيلةَ الوقت: لماذا هو؟ هل كان الأمر كله كرهًا لأنه القدر، أم أنا التي اخترت أن أشقى بعشق رجلٍ لا أستطيع أن أتجاوزه إلى غيره؟ كيف أتجاوز ذلك الذي تهمس كل لمحةٍ فيه إلى روحي؟ هو عينٌ راقبت جسدي يكبر وعرّت لحظات خجلي -مراهقةً- فستَرتْ، لسانٌ علّمني كيف أتذوق الحروف وأتنفس اللغة وأشتمّ ما بين السطور، هو قلبٌ يضخُّ الورود في عروقي، أمْسَك بيدي ووضعها فوق وريدٍ كبير في رقبته فقال لي: أنتِ مثل هذا الوريد موجيّة، تهبين الحياةَ في هدوء ولستِ صاخبةً كإيقاع الشريان ..عندما سألتُه ذات مرة: ماذا تتمنى؟ قال: أريد أن أصير آخر رجلٍ يموت في الكون لأكشف سره الأعظم فوق ورقةِ شجرٍ يتشابه على نسيجها الماء والنور، ذكرٌ أبصرتُ في وجهه كل اللاتي نمن على صدره من قبل ولم أفلح في كراهيته..»

-هذا الرجل سقط اسمه سهوًا من كشوف الموتى، رجلٌ مثل الماء المثلج لا يروى ظمآن يا صغيرتي، هل أخبرتُك من قبل عن شجرة المانوليا؟ هي تلك الشجرة مستديمة الخضرة، ساقها منتصبة وقمتها مستديرة، أوراقها سميكة بسطحٍ علوي لامع وآخر سفلي زغبيّ مغرٍ باللمس..

-وأنت «چانوس» .. سأعلمك من أمرِ حرف «الجيم»، حرف الجَمال والجلال والأجرام السماوية البعيدة ولكنه كذلك حرف الجُرح والجُرم ..

عند كلماتي الأخيرة تلك كان قد هبّ من كرسيه وضمّني بحنانٍ بالغ، ساكبًا فوق جبيني قُبلاته المشبعة بالتبغ والقهوة، حوّل بصري كرهًا إلى تلك الزاوية التي أتجنبُها دائمًا وأبدًا خلف الرفِّ الخشبي المزخرف، أغمضُ عينيّ بقوة قبل أن أراهما ثانيةً يتبادلان القُبَل: سهير.. وأبي!

عُقد كهرمان

يقطُر الماء من رأسها، من قرنيها وعينيها المفتوحتين، ما زال صدرها وبطنها مبتلّين تمامًا وشعيرات أرجلها الدقيقة متلاصقة، خرجت من جُحرٍ صغير بعدما اطمأنت إلى انتهاء الطوفان، قلبها ينبض ببطء، تمشي متثاقلة، لا تسمع صوتًا سوى قَطر الماء منها مع وقع خطواتها، الأرض التي غُمرت بالماء صامتة، بعد كل هذا الصخب العنيف، والحرب التي اتحدت فيها كل قوى الكون ضدها، الشمس وحدها سطعت لتجفف خرائط المياه فوقها. ارتجفت وهي تبحث عن كائن حي صارع الموت مثلها وكُتبت له النجاة بعد هذا الغضب الطويل فلم تجد، الجوع ينهش أحشاءها، ظلّت تمشي حتى وجدت جذع شجرة صنوبر اقتلعتها الأمواج من جذورها فوقعت بالقرب من ساحل البحر، تسلقتها بصعوبة وأرخت أرجلها في إعياء تام، ثم نظرت حولها فوجدت الآلاف من أشجار الصنوبر راقدة في استسلام بطول ساحل البحر!

لو أن الكون قد انتهى بالفعل وما مِن بدايةٍ جديدة بعد هذا الطوفان لماذا ظلّت هي حيّة؟ وإلى متى سيكون في مقدورها هزيمة الجوع الذي يوشك أن

يصرعها؟ أخذت تنقر خشب الصنوبر بقرنيها تنبش أي شيء صالح للأكل من لحائها، كان عليها أن تفعل شيئًا، أن تفعل ما يجب عليها القيام به دومًا، لأنها لا تعرف طريقة أخرى للاستمرار! داعبت إرادتُها مغازلها أسفل بطنها، وشرعت في الغزل، انهمكت في صنع خليّة حُبيبية تشبه عُقداتها قطرات الندى، تهب نسائم البحر فتزلزلها وتوشك على جرفها بعيدًا ولكن النسيج الحريري يقاوم ويستبسل..

أما هو فانشقت عنه الرمال، أخرج نفسه بصعوبة ومضى إلى اليابسة يبحث عن حياة وسط العدم، تتبع رائحتها فانتعش وشعر أنه على مقربةٍ من وليمة تعوضه عن أيام الخوف والجوع وتعيده إلى أيام العز والرخاء قبل أن تغرق الأرض فصعد إلى شجرة الصنوبر ذاتها، وهو يخطط كيف يلتهمها ويوقعها في الشرك، لم يرَ الخلية المنصوبة فعلقت إحدى رجليه بها، كانت هي في حيرةٍ من أمرها واتخذت قرارًا في جزء من الثانية قبل أن يسري سم الخَليّة إلى سائر بدنه، قطعت بقرنها الكلَّابي الجزءَ العالق من رجله، ونفضت الرمال المخلوطة بكائنات البحر الدقيقة من باقي أرجله وجسده والتهمتها، قلّد الذكر الأنثى وأكل ما استطاع، تزاوجا وباضت هي فوق الشجرة ذاتها، كأن الكون بات ينتظر نسلًا جديدًا ليبدئ اللعبة من جديد، وتصاعدت حرارة الأرض إلى أعلى، زحفت فوق البرودة وجلبت معها البعوض والذباب،

عادت الأنثى للصيد وأوقعت العديد من الفرائس في شباكها، صنعت كساءً يغلف بيضها ويحميه وعندما فرغت منه فلم تكن تشعر بمغازلها من شدة التعب، كأن سحابة من الصمغ الأصفر اللزج قد أحاطت بها من كل جانب، كانت شجرة الصنوبر الميتة تذوب تحت حرارة البركان الوشيك من أسفل فأفرزت زيتها وصمغها..

ولكن البركان ظل يغلي ولم يغادر باطن الأرض حتى أنه لم يرسل حممه، هطلت الأمطار والثلوج التي غطت شجرة الصنوبر كمثيلاتها الراقدات بطول الساحل..تجمَّد كل شيء، وتحولت الأشجار إلى أحجار!

في المكان نفسه وليس بعد عام ولا اثنين بل بعد ملايين السنين، كان يسير صيّاد على ساحل بحر البلطيق، حيث الماء أجاج بين الملوحةِ والعذوبة، لمح حجرًا أصفر اللون فالتقطه، وأخذ يقلبّه يحاول أن يجد مصدر العطر المدهش المنبعث من الحجر الشفّاف، وجد عنكبوتًا عالقًا بالداخل، كلما فرك الحجر بأنامله فاح عبيره العنبري، احتفظ الصياد بالقطعة العجيبة والتي ظنَّ أنها مسحورة، اكتُشف منجم للكهرمان في المدينة نفسها بعدها بفترة قصيرة واكتشف الصياد القيمة الكبرى للحجر الثمين، فباعه وبثمنه استطاع شراء بيت كبير ومركب للصيد..

حصل على الجوهرة صائغ ألماني في المدينة نفسها، وضعها في منتصف عقد تزينه أحجار من الكهرمان الأخرى أصغر حجمًا في شكلٍ جمالي بديع، خبّأه في خزينة مع مجوهراته الأخرى، كانت المدينة تنتهي من حرب لتدخل في حربٍ أخرى، حتى استولى الروس على (كونيجسبرج) وطردوا منها كل الألمان القانطين بها مع سقوط هتلر، ليصير اسمها (كالينينجراد) مدينة الكهرمان، وجد أحد الـچنرالات الروس الخزينة سلّم ما بها كغنائم واحتفظ بالعقد لنفسه!

بعد تقاعده بفترة طويلة عانى الـچنرال أزمةً صحية تُوفي على إثرها وذهبت ابنته (داريا) التي عانت طويلًا قسوته لكي تتسلّم ميراثها منه، فلم تجد سوى عقد الكهرمان وشعرت بأنه يناديها ويستعطفها ألا تتخلى عنه، كانت داريا في أمس الحاجة إلى المال، وحال البلاد بعد التفكك صار من سيّئ إلى أسوأ، اقترحت عليها إحدى صديقاتها السفر معها إلى مصر للعمل كراقصة في مدينة شرم الشيخ، استهوتها الفكرة وشعرت بأنها فرصة جيدة للتطهر من ذكرياتها القاسية في روسيا.

عملت داريا راقصة في أحد الفنادق بعد كورس مكثف من دروس الرقص الشرقي في إحدى المدارس المتخصصة، وفي أول يوم عمل لها في الملهى، قررت أن ترتدي عقد الكهرمان فوق صدرها العاري، جُن جنون

الحضور بجمالها ورقصها، شعرت أن العقد منحها حظًّا عظيمًا فلم تتخلَّ عن هذا الطقس قبل أي رقصة لها، خلال إقامتها في شرم الشيخ أحبّت شابًّا مصريًّا يعمل في بازار وتزوجها وحصلت على إقامة دائمة، وبعد ليلةٍ تعد الأجمل منذ ذاقا معًا حلاوة الجنس بينهما، سرق الشاب العقد ونزل به إلى القاهرة، ثم باعه لأحد محلات الصاغة بالحسين بثمنٍ بخس!

-ست الناس، عندي طلبك.

-بتكلم جد؟

-أيوه، تعالي حالًا.

(رقية) متزوجة من عشر سنوات، أنجبت بنتًا بعد تسعة أشهر من زواجها بالتمام والكمال، في أثناء فترة النفاس تعمَّدت أن تدخل عليها أخت زوجها وهي حائض «فكبستها» على حد قول المنجّم الذي فتح «المندل» وكشف اللعبة لرقية، كان يلزمها شيء يفك «المشاهرة» التي تسببت في عدم إنجابها ثانيةً طوال هذه السنوات، جرّبت كل شيء، الطب والأحجبة والتعاويذ وزيارات مقبضة للقبور ليلًا، لا شيء حقق لها أمنيتها المرجوة، أخبرها أحد الدجالين عن آثار الفراعنة القديمة التي تقضي على تلك اللعنات تمامًا، أوصت الصائغ الذي تشتري منه جواهرها بأن يبحث لها عن أثر بتلك المواصفات، وبصفة زوجها أحد أهم تجار الممنوعات في المنطقة قرر الصائغ

أن يحقق ربحًا من وراء تلك السيدة، فما إن حصل على عقد الكهرمان حتى اتصل بها على الفور، وبرغم أنه لا يعرف قيمته الحقيقية، فقد باعه بسعرٍ أرضاه، وشعر بأنها صفقة العمر!

وكما أوصاها المشعوذ، ارتدت عُقد الكهرمان فقط واستحمت في طست ثم عليها أن تجمع الماء الذي يملؤه بعد انتهائها من حمامها لتلقي به على عتبة أخت زوجها المتسببة في (الكبسة)، حينها ستنقلب المشاهرة إليها وتُفك عُقدتها!

في اللحظة المناسبة وقبل أن تنغلق السحابة الصمغية على أنثى العنكبوت الناجية من الطوفان وتُحكم سجنها حولها، وبينما كان القدر منهمكًا في رسم مستقبلها في تلك الثواني لو تجمدت داخل الكهرمانة إلى الأبد، جذبها الذكر بمخالبه إلى الخارج! فقدت رجلين، وتنفست بعمق محتضنةً كيس البيض بأرجلها المتبقية وأخذت تتمسّح بمغازلها في رأس ذكرها الشجاع!

(في الغرفة السحرية)

أسوأ ما في الشتاء أنه يتخلل كل شيء، كأنما يغرس روحه الباردة في الكائنات، يسقيها ثلجًا ويطعمها شحوبًا يشبه أوراقه الصفراء، فيبثها ذلك الجمود الذي يغلّف الحيوانات والنباتات والبشر.. كانت هي وحدها ترتعش، رغم الفراء الثقيل الذي تتدثر به، في تلك الليلة تحديدًا أوصدت كل الأبواب أمامها، فلقد كان هناك دومًا شيء يسبقها كلما طرقَت بابًا: برد الليلة القارس والذي أغلقها كلها بلا رحمة..

أما هو فقد حاول مرارًا ألا يخرج الليلة، كان يؤثر أن يظل مستدفئًا بالأحلام الحلوة، فلطالما أراحه الغياب، ولكنه لم يستطع أن يكبح رغبته في أن يذهب إلى الغرفة التي انتهى بداخلها كل شيء، شعر في تلك الليلة أنه كبر جدًّا، فقبل عدة سنوات فقط كان ما زال بوسعه أن يلهو ويجلس على الأرجوحة دون أن يمنعه حارس الحديقة كما يفعل مع الكبار، ألّا يخجل من ضمة أمه، ولا من أبيه إذا ربط له حذاءه الصغير..

ظلت تتسكع في الطرقات لعلها تجد بارقة أمل، لا تسلَم من أذى المارة، معضلتها المزمنة أنها لا تشعر بالأمان بمفردها، تتمنى لو كان في استطاعتها

أن تتأبط أحدهم حتى تصل إلى أي مكان، أو لا مكان، حقيقة يعلمها من هم مثلها: السائرون بلا هدف –بإصرار– نحو هدفٍ ما..في الطريق طاردتها مخاوفها اليومية من الموت تحت عجلات سيارة مسرعة، انزعاجها من الضوء وما يُحدثه من أثر عليها يجعلها تفضل الظلام بشكل مستمر، الفزع هو ما تحاذر، ولم تعرف قط سبب هذا الفزع عندما يُضاء طريقٌ أمامها، ربما لأن الضوء لم يُظهِر الحقيقة بشكلٍ جيد، ربما لم يظهرها قط، الحقيقة دومًا قيد الإخفاء، وتجلّيها بوضوح مُربكٍ وقد يصير أكبر من أي قدرة على احتمالها..

وجدَ المكان على حاله، صوت الخطر الذي ينبعث من سيارة إسعاف في طريقها إلى صالة الاستقبال، هرولة أم بابنها الرضيع وهي تصرخ، يهبط من الميكروباص عدة رجال يحملون أخاهم مثل الذبيحة وقد أُعمل في جسده سلاح أبيض، حفيف الشجر العتيق والنساء المتشحات بالسواد يبكين بجوار عربة تكريم الإنسان في انتظار خروج جثة المتوفّى، الروح عتيدة الحزن التي تسكن الجدران المتشققة، تسري فيها سريان الماء المنتن الأخضر، لم يعد يندهش من تكرار المشاهد هنا منذ وقوع الحادث الذي انتهى بعده كل شيء، ولكن لماذا يعذب نفسه بالمجيء؟ أن يسلك هذا الطريق حتى يصل إلى الغرفة ذاتها، يمشي بين البشر وقد عجّت بأجسادهم الطرقات نيامًا ووقوفًا وقعودًا، رآهم كيف يترقبون ولادة جديدة وكيف يحترفون الغياب عن الأحبة..

ربما كان الأسلم في هذا الجو شديد البرودة أن تظل على مقربةٍ منهم، تحاول الالتصاق بأنفاسِهم الحارة ورائحة دخانهم التي تحكي كثيرًا عن دواخلهم، ولأن الزحام هنا مطمئن للقلوب الوحيدة، القلوب دائمة الترحال بلا صوت لها، ظلّت هي مجهولة، خطواتها الخافتة وميلها المزمن إلى الاختباء سلبهم كل فرصة ممكنة للتعرف إلى اسمها أو الإمساك بها، ولو أمهلتهم للتحديق طويلًا في خضرة عينيها المسحوبتين لتغيرت أشياء كثيرة في حيواتهم المتشابهة، ولصارت سكنًا للآلام الشديدة التي أيقظتها في ليلة الشتاء تلك، أخذتها الخطى إلى العمق حيث يفيض الجميع، إلى أجراس الخطر ومحاولات إنعاش القلوب التي أنهكتها الحياة، الأيدي المقفّزة التي تتحرى مواطنَ الوجع، وأصحابَ العيون عندما ترضى وتكتفي لو تدفّق ما حُبس فيها، عبر الخراطيم أسفل منهم فناموا في أماكنهم، تسللت إلى الداخل.. إلى حيث يساقون فيتمتّع جميعهم براحةٍ طويلة الأمد..

وصل إلى هناك وقد وخزته ذكرى الحلم القديم، الغرفة ذاتها مفتوحة أمامه، لا تصادفه أبدًا أبواب مغلقة منذ انتهى كل شيء، الحرارة التي تسكن جسده تتلاشى تدريجيًّا لدرجة أن دماءه بدأت تقطر من أنفه، تحسّس شفتيه الدقيقتين فوجد الدم ينفث من بينهما أيضًا، يبحث عن أي شخص ينقذه، يبدو كأن لا أحد يسمع صوته، فالجميع ينظر إليه في اطمئنان غير مبالين

باستغاثته، تستفزه ضحكات طفل ينظر إليه دون أن يفعل شيئًا، يجذب نفَسًا عميقًا ثم يزفر، ويضحك ثانيةً، يتحدث عن تلك الغرفة السحرية التي خلّصته ممّا يعاني، من الزرقة التي احتلّت وجهه منذ وُلد، ومن سخرية جيرانه منه عندما يجلس القرفصاء لكي يتمكّن من التنفس! كان الوحيد الذي يفعل ذلك، ولم يفهم قط لماذا! شجّع الطفلُ الآخرين كي يقصوا حكاياتهم، بينما ظل هو وحده نازفًا لا يدري ما يفعل، حتى أن جرذًا رماديًّا كبير الحجم أخذ يتنقّل بين الزوايا بأريحية دونما ارتباك، وسقف الحجرة الذي يشبه الفِلّين يخفي فوقه عائلات ضخمة من الفئران يُنتظر أن تسقط من أعلى في أي لحظة، كان يراه كلوحٍ من الجليد ..بدا الوقت أطول من اللازم، غير أن الحدث المهول يحصل له مجددًا، ثم لمح هرةً برتقالية تقفز من نافذة الحجرة إلى الداخل!

في الوقت نفسه، اكتشفت أنها أدفأ شيءٍ في هذا المكان، الفارغ على ازدحامه بالجثامين، الصاخب رغم الصمت المطبق، أصابها الفزع الشديد وحاولت القفز إلى أعلى كي تخرج من النافذة مثلما دخلت، ولكن خارت قواها وشعرت أنه لن يكون بمقدورها أن تلوِي جسدها أكثر حتى تفر من الفتحة الضيقة ثانيةً، الباب موصد ككل الأبواب التي أُغلقت في وجهها، والأحذية التي ركلتها، وذيلها المبتور ليس هنا ليساعدها، الكلاب المسعورة

مضغته في ليلة مشابهة وحينها فقدت معه روحًا من أرواحها المتعددة، كهرّة برتقالية اللون هي الأكثر شيوعًا كالمرض والخوف والموت، تستطيع التخلي عن إحدى أرواحها الآن، فتلعق بعض الدم المراق فوق أرض الغرفة الباردة، لتعود حيّةً بفعل روح أكثر حزنًا وموتًا من أرواحها الست السابقة!

(قاهر ناچا)

عزيزتي چولي..

توجهتُ اليوم إلى الشاطئ، لألقي نظرة الوداع على جثامين الحيتان البريئة، الكائنات الأضخم على وجه الأرض برؤوسها الكبيرة والتي لا تستطيع الصمود أمام كل هذا الزّيف، يبدو أحدهم من بعيد على الشاشات مستلقيًا بنصف ابتسامة كمن مات متهكمًا، لا ينقصه سوى سيجار «هاڤانا» يتدلى من بين أنيابه، في الحقيقة يا چولي لن أخفي حزني لأنني لم أكن أفهم رسالة الحوت جيدًا: دفقة الماء القوية النافثة لأعلى من خياشيمه، ليست سوى بصقة كبيرة على الكون..

حوادث الانتحار المتكررة بين الكائنات الأعز لديّ: من الحيوانات والأصدقاء تُذكّرني بين الحين والآخر بالحقيقة الوحيدة التي أؤمن بها: الموت، نا لا أؤمن بشيء آخر كما تعلمين، تلك الحقيقة أنستني السؤال عنكِ يا چولي في بداية رسالتي، اعذريني، ولكن على أي حال الحياة تستمر.

ربما لن تصدقي ما سأقوله، «پرونو» صديق «سيلـڤا» كلبها المخلص أغرق نفسه في المغطس بعد أيام من انتحارها، «سيلـڤا» قررت إنهاء حياتها

منذ زمن طويل، ليس بمقدور أحد أن يوقف قرارًا كهذا لأنه جزء من احترامنا وحبنا لـ «سيلـڤا»: أن ندعها تفعل ما تشاء، أقمنا لها حفل وداع في الغابة تحت شجرة البلوط الكبيرة التي تحبها، لم نكن ندري أنه وداع لـپرونو الطيب أيضًا..

لم أخبرْك من قبل عن صديقي الحبيب «سكوربيو»، عقربي الصغير، المخلوق الرائع الذي كان يشاركني وحدتي، كنتُ أخبره بكل أفكاري ومخاوفي، أذرع «سكوربيو» المعقوفة هي التي كانت تكتب خواطري ومشاعري، كنتُ أنقل عنه فحسب، هل كان «سكوربيو» توأم روحي؟ أخشى الإجابة عن هذا السؤال يا چولي، لأنني كنتُ السبب في موته، دائمًا ما تحدث المصائب في ليالي الآحاد، شبَّ حريقٌ في أوراقي و«سكوربيو» نائم في بيته الزجاجي، كان الحريق صغيرًا جدًّا يا چولي، وقبل أن أطفئ النيران لأنقذه شاهدتُ عقربي المسكين يلدغ نفسه، ظهر «سكوربيو» لأول مرة أمامي غبيًّا وقاسيًا، ألم يكن يدري أن السم لن يقتله أبدًا؟ عرفتُ أنه الخوف وحده هو ما جعل «سكوربيو» الحكيم يُقدم على هذا العمل المضحك.

أتمنى لكِ عمرًا مديدًا مليئًا بالسعادة ..

مع خالص تحياتي

ألفريد

عزيزتي چولي ..

كيف حالك يا صديقتي العزيزة؟ أتمنى أن تكوني بخير، يبدو أن العالم المزعج قد أوشك أخيرًا على الانتهاء يا چولي، فمن المستحيل ألا تُفضي تلك الفوضى الكونية إلى نهاية حتمية، نهاية غير صالحة لأى بداية جديدة..

قرأتُ بشغف عن الثقب الأرضي الكبير في «ياماﻟ»، وأكتب إليكِ الآن وأنا أستعدُّ للرحيل إلى هناك، لأشاهد من كثب بداية النهاية يا چولي، أعرف أنكِ تحبين المغامرة وربما التقينا في «سيبريا» قريبًا..فكري في الأمر ..

مع خالص تحياتي

ألفريد

چولي العزيزة..

كم أودُّ أن أراكِ هنا في «يامال»، حيث أحيا بداخل خيمة بدوية فوق شبه الجزيرة البيضاء بين معشر «النِّنْتْس» الأنقياء، ولا يبرح عقلي هذا التساؤل: لماذا يجب أن ينتهي العالم لدى «النتس» أولًا؟! لا يبالي هؤلاء يا چولي بالفتحة المخيفة السوداء، لا شيء تغيّر على الإطلاق، إنهم يسوقون قطعان الرنة كالمعتاد ويراقبونها كيلا تذهب بعيدًا، يقطعون أشجار «اللاركس» الصنوبرية ويصنعون الزلاجات بأيديهم الخشنة المتقرّحة، يجمعون قطع الثلوج من أجل ماء الشرب كالعادة، «النتس» في حالة بحث دائم عن الكلأ، يرتحلون إلى حيث يتوافر طعام الرنة، تحيك النساء الأغطية والملابس من جلود الأيائل ورأيتهن يأخذن أوتارها فيصنعن منها الأربطة التي تجمع شتات كل شيء هنا، يبتسمون ببراءة أمام عدسات المصورين كبارًا وصغارًا، أشعر جدًّا بالدفء هنا يا چولي رغم الجليد الذي لا يذوب كليةً حتى في الصيف، لا أدري مبعثه ولا أعلم كيف يشعر الإنسان بدفء قلبه بينما توشك أطرافه على التساقط أو عندما يريد قطعها بنفسه من شدة آلام الصقيع، بدأتُ أوقن أن البرودة كانت شيئًا يكمن في قلبي الميت فحسب.

يظن الجميع هنا أنني كاثوليكي، وظل يداعبني «يابتيك» وهو يتقافز وسط قطيعه من الرنة الوديعة بقرونها الطويلة مقلدًا «سانتا كلوس»، طلب مني صراحةً أن أصلّي للرب كي ينقذ العالم أو يهبه نهايةً رحيمة لا عذاب فيها، ظننتُ أنني شيخ في الثلاثين يا چولي أمام ابتسامةِ طفل في الخمسين من عمره لا يعرف شيئًا عن قسوة هذا العالم الذي يطلب له الرحمة، سألته إذا كان يعرف سِرَّ اقتران سانتا بالرنة، وهل هذا معناه أنه عاش بين النتس، قال إن سانتا الذي يعبده قومه هو «ميكولا موتراتنا» الإله العظيم، كانت تلك مفاجأة كبيرة لي.

تزداد تساؤلاتي تعقيدًا: لماذا يجب أن يموت هؤلاء أصلًا؟ لو بقي «النتس» الوديعون أبدًا أستطيع أن أتخيّل حياةً أرحب وأجمل..هل هناك أمل يا چولي ألا يموت أصدقائي «النتس»؟

خالص تحياتي

ألفريد

عزيزتي چولي..

أفتقدك جدًّا يا صديقتي، الحياة هنا فقط تستحق أن نحياها، هل رأيتِ صوري مع رفاقي من أهل «يامال» الرائعين؟ يقولون إنني صرتُ أشبههم، رقم ضيق عيونهم السود وشعرهم الأدكن وجلودهم الصفراء..أشعر أنني شخصٌ آخر يا چولي، ألفريد الذي لا يستطيع أن يلحق الأذى بحشرة صغيرة تتسلق حذاءه، يقف في سهلٍ أجرد وسط جثث الرنة المقتولة! ألفريد النباتي الذي كاد يؤسس لجمعية تتضامن مع حقوق الحيوان وتجريم ذبحها وأكلها، يتحرق شوقًا كل مساء إلى حساء اللحم المطبوخ الساخن!

هل تصدقين يا چولي؟!

عبر نهر الطاز المتدفق أخذتنا أجساد الأيائل القوية إلى حيث مذبحها، يا لها من تضحيةٍ عظيمة! رأيت الرجال يربطون رقابها بالحبال حتى تفارق منها الروح، ثم تبدأ النساء بتمزيق أحشائها، يتمتع «النتس» بمذاق اللحم النيء، ولا يكتفون بهذا فقط، بل يشربون الدماء الطازجة من الذبائح مباشرةً، أستطيع أن أتفهم أفعالهم والتي من المؤكد أنها تبدو لكِ وحشيةً،

هم يعشقون الطبيعة ومحرومون من الألوان الحارة فحسب يا چولي، يفتقد أصدقائي وهج الشمس، هذا كل شيء..

خالطتُ عددًا من كهنة النتس، ورأيتُ أوثانهم المنتصبة فوق الجليد وحيواناتهم المقدسة التي يُسكِنونها خيامهم ولا يسمحون بقتلها أبدًا، قصّ عليّ الكاهن «بويكو» بداية رحلته مع الأرواح السابحة في الكون، وكيف تكالبت عليه وأمسكت به ثم حلّقت بجسده بعيدًا نحو الأعالي، أكد لي «بويكو» أنه فارق الحياة من قبل، وتجلّت له روح أبيه الذي طمأنه، صرح لي بأن الأرواح قد مزقت جسده من الداخل عدة مرات وكان هذا ضروريًّا من أجل إعداده للكهانة، وبعد عذاب جسدي وروحاني لا يُحتمل قفزت روح أخيه «لار» الطيبة بداخله، تلك الروح الطاهرة التي ستمده بالقوة وستحميه حتى المماتِ..

كان غريبًا أن يمسك «بويكو» بآلته الإيقاعية المستديرة طيلة الوقت مثل تشبث الساحر بالبلّورة الكاشفة للغيب، لأول مرة في حياتي يا چولي أفهم معنى الدائرة، لأول مرة أرى لعبة القدر على مقربةٍ مني وكأنني طرفٌ فيها يتحيّن اللحظة المناسبة ليرمي ورقه الرابح، طبلة «بويكو» والتي نهشتها الأرواح من كل جانب كشفت لي السِّرَّ كله، طرقُه فوقها كان دقًا فوق نسيج

روحه المنبسطة الرقيقة مشدودةً إلى حدود الدائرة، أستطيع أن أرى روح «بويكو» بوضوح عندما تغادر الأرض للمرة الأخيرة متحررةً من الطوق الخانق في فرح..

المخلص

ألفريد

الأعز چولي ..

في غمرة ذهولي من كتل الجليد الدكناء المتساقطة فوقي أمس، قال صديقي «يابتيك» إن هطول الثلوج السوداء فألٌ سيئ، يجب على العشيرة أن تقدم مزيدًا من القرابين إلى إله الشر «ناچا»..

قررتُ أن أذهب إلى التجويف الأسود الكبير: سبب مجيئي إلى هنا، هل هي مصادفة أن يكون معنى كلمة «يامال»: «نهاية العالم»؟ هل حان الوقت لأتحرر من دائرتي؟ هل أمتطي زلاجتي وأرحل مع رنتي الصغيرة إلى داخل هوة النهاية قربانًا إلى «ناچا» كي يحيا النتس الطيبون في سلام؟ أم أذهب إليه في إقدام فأقتله؟

في الظلام وفيما بعد الموت حيث يتمنى الإنسان بالفعل أن يجد إلهًا طيبًا في انتظاره، سيدرك حينها أنه لم يكن في حاجة إلى الوجود في حظيرة ملكه، بل يكفيه أن يسكن قلوب مخلوقاته الربانية.

ناشرتي الجميلة چولي، سأرسل إليكِ روايتي قاهر ناچا الآن وقد سطرتُ آخر كلمة فيها، أما الإهداء فهو لـ«يامال»: معشر النتس والرنة، وانقلي عني تلك الكلمات في مستهل الرواية:

أغنية راعي الرنة الصالح:

سأكون قطرة المطر

التي تزيّن هُدبك

ناچا يموت

ناچا يموت!

سأكون ندفة جليد

تبقى على طوق فرائك

خائفةً من دفء عنقك!

ناچا يموت

ناچا يموت!

وعندما تنطلقين بزلاجتك

حيث السهول البيض تغني لكِ،

سأكون ابتسامةً تنير وجهك

ناچا يموت!

ناچا يموت!

قاهر ناچا

ألفريد

(الحَوَايَة)

جلست «نبوية» متكورةً أمام الفرن البلدي بقاعدته الطينية بمفردها، يؤنسها أول ضوء شقَّ عطش الليل للنور، تكشطه كشطًا بـ«البشكور» من الداخل لتزيل عن فوهته ترابه، جمعته في حِجرها واتجهت إلى داخل الدار عبر باب خشبي تسري فيه الشقوق الطويلة بطلاءٍ جفَّ فذهب لونه وتساقطت قشرته وانعجن بعضه بالخشب النَّخِر. نثرت جزءًا من التراب تحت جذور البصل المرصوص في علبة من الكرتون ورشّت جزءًا آخر فوق كرات الثوم المربوط في حزمة معلقة على الحائط، بجوار نافذة وحيدة في ساحة البيت الصغير، دخلت الشمس بلا استئذان فعرّت ما سترت الظلمة، سقطت على مرآة اختفى نصفُها تحت صورة لفتى أسمر يرتدي جلبابًا وغطاءً مستديرًا للرأس تنزلق إحدى حوافها تحت إطار المرآة المصنوع من جريد النخل. احتفظت «نبوية» ببقية تراب الفرن في وعاء كبير دفعته إلى إحدى الزوايا..

عادت لتجلس بصعوبة أمام الفرن، تمسحه «بالمصلحة» جيدًا، «بسم الله» نزعت الغطاء الأبيض وفحصت العجين المختمر في «الماجور» منذ ليلة أمس وهي تضيّق عينيها فازدادت التجاعيد حولها: «الحمد لله.. غطيتك

بالدقيق وكفانا المولى شر الضيق»، تختبر العجين بين يديها، فظهر البنصر الأيسر بعقلةٍ مشوهة مفصولة عن الإصبع إلا من خيطٍ رفيع يربطها به.. تشعر أصابعها المنتفخة عند مفاصلها الصغيرة بملمس خصلة شعر فاستلّتها من مادته الباردة: «لوف.. لوف.. زي ما لافت النعجة ع الخروف.. والحنة ع الكفوف.. واللي ياكل منك رغيف يرجع ملهوف..».

أعدّت «المطارح» وخبزت بمشقة ثم أشعلت الفرن وهي تقول:

«طريق طريق يا أصحاب الطريق، عمار عمار يا أصحاب المكان.. خبوا عيالكم النار جَيالكم..».. ثم تنهدت: «وينها العيال يا «وِيّة»؟»..

قامت العجوز إلى الزير تفحص ماءه، فوجدته على وشك النفاد، أخرجت قدرًا كبيرًا خاويًا ملأته إلى الثلث بالخبز الساخن، ثم وضعت «الحواية» على رأسها حاملةً الوعاء وقتبَ ظهرِها معًا، خرجت «نبوية» ذات السبعين عامًا تمشي ببطء بين بيوت جيرانها، كلما لفحتها حرارة الشمس وأسالت حبات عرقها مالت نسمةٌ شمالية خفيفة عبثت بثوبها ورطّبت جِلدتها.. تظهر من بعيد مثل كومة نحيلة سوداء تلمع من أعلاها، تتبيّن بصعوبة أشباح البشر المارين من أمامها ومن خلفها وإلى جوارها، تصل إلى مقصدها بعد مسافة مشي تقارب ربع الساعة حيثُ «الطلمبة» التي تألفها جيدًا أكثر من أي شيء هنا في «الحَرجة»، تُنادي بأعلى صوت: «يا أم الهواش.. يا أم الهواش»، تخرج

امرأة متوسطة السن متثاقلة إليها، تحاول أن تستقبلها بترحاب: «صباح الخير يا ست «ويّة»، كِيف أحوالك؟»

– صباحك نور يا «أم الهواش».. خبيز النهارده.. ماشية الأحوال يا غالية..

– تسلم يَدّك.

– تمليلي ميه ينوبك ثواب؟

–(بامتعاض) أمرك يا ست «وِيّة»، لساكي مدخّلتيش ميه حداكي؟

– نحمد الله.. إحنا أحسن من غيرنا.. معلهش.. تقّلت عليكم.

– (وهي تحرك ذراع الطلمبة بتململ) معلهش..

– تسلم يدّك يا «أم الهواش»، يجعله عامر ويكفيكي انتي وعيالك شر المرض.

تحاول «نبوية» التقاط الوعاء الثقيل المملوء بالماء لترفعه فلا تستطيع، تساعدها «أم الهواش» ثم تتركها تمضي في طريق العودة بحِملها بين فرحة الحصول على الماء وبين دمعةٍ مكسورة فرّت من عينها.. تتدافع في رأسها المنهك شجونٌ قديمة تتجدد كل يوم أمام ماء الطلمبة المنساب، منذ متى و«نبوية» تحترف الحمل والصبر؟ خمسون عامًا وأكثر، حملت الجِرار والعيال

والسخام والموتى.. حملت حتى زوجها المريض عندما تقيّأ دمًا في طست الغسيل أمامها.. في كل يومٍ يزداد الحِمل، ويزداد معه تقوس ظهرها المتصلب..

لكن أكثر ما يشغل بال «نبوية» حقًّا هو أن تصل بالقِدر دون أن يفقد أكثر من ثلث مائه، مع كل قطرة ماء تهبط من أعلى كان هناك أمل يسقط أمام ناظريها، لا يهم أن تُحرم من لذة النظر إلى الأعالي، من رؤية شجرة الكافور العالية وطيورها تودع أعشاشها خماصًا في الصباح لتعود بطانًا في المساء، تدعو الله أن يمدها بالقوة كيلا تحتاج إلى مدد من سواه، كي يكفي الماء ويفيض، لكن كيف؟ توقن «نبوية» أن ذلك ليس من أمر العباد.

يزداد إصرار «نبوية» مع كل خطوة، لن تجعل للأرض نصيبًا من مائها، لو لم يكن طعم الروث يملأ ماء النيل! لشرِبَت حتى ارتوت، لو أن ماءه الملوث لا يصيبها بالمرض كما حدث منذ عدة أعوام وكادت تموت! لو أن ورد النيل يصلح للأكل، وتعود جاموسة ليلة القدر النافقة بعد استلامها من أهل الخير بساعات، يسوقها «حسين» غاديًا من المستشفى الأميري قبل أن يأكله سواد الحمى الشوكية، ويأتي شبحه مبتسمًا لها في حُلةِ العيد حول قبره! خسارة...

«يوم وليلة بس يا رب..أريّح فيهم جتتي.. أخلّص فيهم عجيني وأعمل بتاو.. مشتاقاله.. وأتسبّح.. يوم وليلة بس يا رب.. زِد في مكانك زي ما

زدت في ميزانك، من شافك قُنُع ومن شرب منك شبع، الله أكبر الله أكبر ببركة سيدنا محمد الله أكبر، ببركة سيدنا سليمان الله أكبر، ببركة الأنبياء كلهم كتبت البركة فيه والبركة دايما فيه، يا رب ما يقل ويزيد ويبقى الخير فوق بعضه».

بينما معلق هو قلب «نبوية» بآمالها في قدر الماء، يصادفها بعض أطفال «الحرجة» يصيحون:

«الوِيّة الغولة أهي.. الوِيّة القرعة أهي»..

ترتبك «نبوية» وتخشى أن يقذفها الأطفال بالطوب فيتسببون في إيقاع قدر الماء المتأرجح فوق رأسها، كادت تصل.. تشعر بألم شديد في رأسها وظهرها: «هانت يا وِيّة.. النبي حبيبك يا رب.. طالبة منك يرقيني زي ما رقى ناقته، حطّلها العليق ما دَاقْته، بعد ما رقاها واسترقاها أكلت عليقها وشربت ميتها ومسها بإيده اليمين صَبَحِت تسير الله أكبر..

غولة برضك؟ دنا اللي شِلت أمك يا أحمد.. شلت أمك لما تُرَب «الحرجة» غرقت يا أحمد ونشلتها من الميه وهي ميتة.. خُفت جتتها تدوب وتبقى ميه منتّنة..».

«الحرجة، مركز ناصر، بني سويف.. كتب «نعمان» زمان ع الظرف لمولانا الإمام، كنت أملّيه وهو يكتب: بما إني حُرمة فقيرة الحال ومسكينة وغلبانة،

تتفسّر في هريدي، كسر بيتي وأخذ مني البهيمة تتفسر فيه وشاركه في عمره وتخبله بأي داء في جميع جسمه أو تلقوه مقتول مرمي، وأنا وليّة مسكينة وشاحتة منك ومن الله وقوتي ليك ولله». في سنتها لقوه الرجالة واقع في غيطه لا بيصد ولا بيرد»..

أخيرًا وصلت «نبوية» إلى دارها، جلست القرفصاء وهي ترفع عنها حملها، سكبت نصف الماء في الزير واحتفظت بالبقية في الداخل، ثم نزعت عن رأسها «الحواية» ومن بعدها غطاء رأسها الأسود ببطء وهي تتمتم: «يوم وليلة بس يا رب»، كانت الحواية قد رسمت دائرة كبيرة خالية من الشعر في ذؤابة «نبوية» البيضاء!

(وحياة قلبي وأتْراحه)

يا صرختَه الأخيرة دوِّ وأَسْمعِي مَن به صمُمُ.. وليعُد صداها للرجوع مرارًا حتى تشكو الجدران.. ماذا على رجع الصدى لو يُعِيد؟

لو يعيدُ إليّ ضحكةً واحدةً قبل أن يتجمّد وجهي وتُصلَب شفتاي فوقه للأبد!

يا لَروعة الأحرف القليلة تخرج من فِيكَ ممدودةً هكذا بلا انقطاع! منذ سنوات لم أكن أسمع صوتك قط سوى متقطّعًا بالأمر والنهي وبذلك التأوُّه في لهاثك القصير وقت رغبتك المحمومة فيّ، لا يفلحُ في إطالته كل عقاقيرك الثمينة..

يا إلهي! أريد أن أرقص.. وأصفّق مثل قرد منتشٍ بسباطة من المَوز الفاخر وحفنة كبيرة من الفول السوداني تملأ راحتيه الممدودتين.. ثم أريد جدًّا أن أنام فوق صدرٍ حنون كقردٍ آخر رضيع مبتسم يتوسد نهد أمه.. يبدو أن الإنسان أعرق من القرد في قِرديّته كما قال «نيتشه»..

وحياة قلبي وأتْراحه – وإنه لقسم لو تعلمون عظيم – لأفرحنّ! خُلقَت القلوب معيبةً بثقوبٍ كبيرة لا يسد جوعها شيء.. ولَكم قنعتُ بجوعي، ولَكَم اتسع ثقب قلبي الآن.. يريد أن يبتلع الكون بأكمله..

المشهد عبثي.. في وضح النهار، امرأة شارفت على الأربعين ترقص فوق جثّة رجل تجاوز الخمسين! البحر يرغي ويزبد، مغرٍ ويناديني.. من قال يا بحر إن الموت حدثٌ حزين وموجع؟ هل كان أول قلب متاح للموت أضعف من آخر قلب سيموت؟ وهل نموتُ من الموت يا بحر؟ أم مِن نور الصباح المتآكل فوق أحلامنا.. ومن غبار السنوات على أرواحنا.. ومن وهمٍ يقال له الراحة.. ومن هلع حصار الغد لحاضرنا.. مِن شيء ما يسدّ ثقوب الحياة اسمه الانتظار؟! هل حقًّا نموت من الموت؟

وهل عليّ أن أصدق أن تلك الجثة ماتت الآن فقط؟ وأنني بالفعل حيّة ولستُ أكثر موتًا من هذا الجسد الصامت أبدًا؟

أنا حيّة وسأحيا.. ولا بد أن أصدّق ذلك.. فلا يلبي الموتى النداء، وهأنا عارية إلا من روحي وجسدي يرتميان في أحضان الأزرق.. وسأتقمص الآن دور البطولة في أهم الأفلام الملحمية ذات الإنتاج الضخم، ولتطلِق عذارى البُلْغار عديدَهن الطويل في الخلفية الموسيقية للمشهد المثير.. ثبّت أيها المصور عدستك على نهدين احتوتهما قبل دقائق حمالةُ صدر سوداء من نوعية الـ«push up»، في محاولةٍ يائسة لرفع أشياءٍ كثيرة إلى ذروتها.. أحلام.. رغبات.. أعضاء مشلولة..

«شيء ما يصيبني بالنفور الشديد من فكرة العودة إلى الرضاعة، من تذكار مذاق اللبن إذا قُطِر من ثدي منتفخ كالضرع، رذيلةٌ ما تلتصق بضميري تشبه جريمة أن ينكح أحدهم أمه!»

هكذا يهرب الفيلسوف من حصار الأنثى في زمن يُقال له: «النِّنَا هُو»، حيثُ ينام الذكور مثل الخراتيت ويتركون «البوش أب» وحيدًا طوال الليل!

اغسلني الآن يا بحر مثل الفَرَس «إِكْوَاس»، يقع في غرامه ذلك الرجل الخبيث متأملًا قطراتك التي تداعب جلده الأبيض في المسرحية الإذاعية، اغسلني من نظرته الأولى وجوعه الأول ومن ملايين الخلايا تُساقِط عن جلدي كل صباح وتتركه برائحة تشبه الرحيل، لا تفلح في محوها أغلى العطور! أغسلُ أذنيّ من كلماته الأولى، صياد يهمس لي في أعماقك: «أمانة يا بحر جَاش خِلي مَلَا منك؟ أبيض ظريف المعالم اختشى منك».. ومن لومه عندما انقطعتُ عنك في اليوم التالي وعدتُ عند الغروب: «كان خِلّك بيستناك استغيبَك يا جميل قطع العشم منك»!

اصمت، أنت ملقى الآن على الرخام البارد بالداخل مثل الذبيحة، ذبيحة مثل التي حملها أبوك «الجزار» وذهب بها إلى حَمِيه في محل جزارته المجاور فوجد أمك تقف بالسكين بدلًا منه فقال لها: «لم أكن أعرف أن لدى الحاج

«حلويات» يخفيها عنا» ولما شتمته، أخذ جدك في المساء كي يطلبها للزواج لتأتي أنت إلى الدنيا.. كان لا بدَّ عليها في ليلة الزفاف وهي تقتحم حجرتهما بالسّكين، بينما هو جالس ينتظرها فوق السرير مطرقًا في سقف الحجرة حتى تبدّل فستان الزفاف بآخر مغرٍ، يبرز اللحم «الأوزي» المشرئب بالحمرة، أن تقطعَ أعز ما يملك بدلًا من محاولة تخويفه بتقشير ثمرة البرتقال فحسب!

«شششش»، هدوءً.. أريد أن أستلقي فوق صفحة الأزرق وأشعر بالطفو المدهش ليتمدد جسدي كليةً فوق الماء.. آه.. ذلك العري البهيّ.. أقِفُ لا يغطّيني سوى معطف من الشيفون الأسود في شرفة الفندق الذي يطلّ عليك يا بحر، ليعترض جسدي شعاع الشمس المتعامد تمامًا على وجهه النائم، ألهو بجذعي مع مخروط الضوء ومع وجهه يشتعل وينطفئ أمامي، مبتسمًا يصحو فيشير إليّ بإصبعه، أُهرع إلى شفتيه، هل كان أفضل رجل بإمكانه تقبيل امرأة؟ لا أدري بالطبع، كان يقبّل كلَّ ركن حول شفتيّ، يُغرق الزاويتين بالقُبل وكأنه لا يرومُ المزيد، فأُجَنّ.. بالمناسبة! ما كان إصراري أن أقبّل جرحًا غائرًا في ساقه أول ما قبّلت من جسده؟ كنت أتساءل لو أن تقبيل الجراح قد يدفعها إلى الالتئام فعلًا كما كانوا يفعلون معنا في الصغر! ألتهمُ شفته السفلى المشقوقة كشفةِ أرنب ولا أفلتُها وكأنني أحاول لصقها من جديد.. أبتعد لأقترب فيجذبني من المعطف الشيفون، فأخلعه في تحدٍّ،

أراوغه من جديد وهو مستلقٍ، فتتعلق يداه في الهواء يريد التشبث بأي شيء مني، أتركه غارقًا في الشبق، فيقول: أرسلي إليَّ بهلب! أقرّب إليه أحدهما غنجةً: هذا متخصص في إدارة الأزمة وإنقاذ الغرقى.. يقول طامعًا: تأخرتِ، لقد مت وأنا في الجنة الآن، وبي توقٌ لسائر فاكهة الفراديس!

انعَمْ بجحيمٍ مقيمٍ الآن!

أنا أتضور جوعًا، وأشتاق «غزل البنات» بشدة لأنني كنتُ أتخيل والسكر يذوب في فمي أني أقضم السحابات البعيدة! أفضل شيء فعلته أيها السكّير أنك اشتريت هذا المسكن.. اشتريتَه وأنت لا تدري أنك تشتري مقبرتك.. كنتَ تظن أن قصتك معي لن تنتهي مثل قصص «المَانـچا»؟! أشتهي كوبًا ساخنًا من القهوة أحتسيه هنا على الشاطئ، أرشفه وحدي لمرةٍ واحدةٍ أخيرًا دون أن أتخيل بصقتك الصفراء فيه.. ودون أن أصبَّ الماء صبًّا في الكوب فيخرق أذني صوت بولك المتدفق في المرحاض!

كيف لهذا الأنيق اللامع أن يبول أو يتغوط؟ كيف له أن يتجشأ أو يضرط؟ كيف له أن يخطئ؟ يجلس بابتسامته الهادئة نظيفًا مقلّم الأظفار، عطره الفواح يخدّر المذيعة ذات الأهداب الاصطناعية، حركات يديه الأفعوانية تشتّت الانتباه، قدرة فائقة على الإقناع، الخبير العالِم بخبايا الأمور، يتبسّط ويضحك مع المذيعة المأخوذة بالشخصية الآسرة.. ماذا قال لها في الفواصل؟ هل امتدح

ثوبها القصير؟ وسأل في جرأةٍ عن ارتباطها؟ هل تناست فرشفت من كوب الماء الموضوع أمامه؟ تُراها شعرت بالاضطراب عندما فَكَّ زر القميص العلوي؟ بكل تأكيد تبادلا أرقام الهواتف على بوابة الاستديو الثقيلة! وأنا هنا آكل أظفاري وأجذب الزوائد الجلدية في قدمي لتنزف، أريد تحطيم كل شيء.. وسأبدأ بالشاشة اللعينة! أستقبلُه بجهلٍ تامٍّ، وأدفن رأسي كالنعامة في صدره، لا لأنني أخشى مواجهته، بل لأن النعامة الطائشة لا تمتلك أسنانًا تؤهلها لخوض معارك!

هواء الخريف يحطّم النافذة، سيسقط الزجاج المكسور فوق رأسك قطعةً قطعة..

خمسة عشر عامًا يقولُها: «إن أفعلْها، فلستُ بعاشقٍ، إن أفعلها، أصير طالبَ ولد..»، ولكنني أطلب الولَد يا ظالمًا! أطلب بنتًا تشبهني في ثوبٍ أبيض أراها كل ليلة تغسل قدميها تحت شلالٍ صغيرٍ ينزلق فوق رامةٍ خضراء.. إنما هو عار الزواج الثاني ما تحاذر.. تخشى أن تهدم الزوجة الأولى المعبد بكل من وما فيه، تخشى أن يغلق رأسُ طفلي – إذ يخرج إلى الدنيا – بابَ رحمة الزوجة وأولادها بك!

كان يتحتم عليّ الرحيل.. كان لا بدَّ من هجرانه.. كان يجب أن أستمسك بمقاومتي.. وكان الحب.. ذلك الجنون.. فكان الألم.. وتعلّمنا الألم وأحببنا الألم وتُقنا إلى الألم، وقالوا: إن الحقيقة لا تُكتسب إلا بالألم!

وأصبحَ..ثم الآن كانَ..

أحببتُه والتعتُ في حبه وذوّبني الشوق إليه قريبًا كان أم بعيدًا.. ليت هناك معادلًا للشوق بلغة الكيمياء، شيء تصبُّه صبًّا فوقه فيطفئه، يكسر سُمّه.. يذيب ذراته فينا ويُبقي فقط على ذلك الترياق الذي لا حياة بدونه: الحب وحده.. صافيًا دون لوعةٍ واشتياق.. أو يصنعون مصلًا فعالًا ضد الحب ويتركوننا نموت في سلام من دون تذكار..

كيف يمكنني البدء من جديد.. بدونه؟!

هل مات فعلًا.. حبيبي؟!

يا رب رحمتَك.. الأمانَ.. الأمانَ.. منذ متى وأنا آكل من خبزِك يا ذا الجود؟

(يظهر ظلٌ مداهمًا إياها من الخلف ليغطي جسدها العاري فانتفضت مذعورةً واقفةً لتجد زوجها في مواجهتها تمامًا)

-حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ ماذا حدث؟

- آآ..أنا بخير وأنت؟ أنت حي؟

-أجل حي.. هل هذا سؤال؟ ماذا حدث؟ أنا لا أذكر شيئًا على الإطلاق.. هل حدث مكروه؟

- أنا لا أذكر شيئًا أيضًا.. ولكن المهم أنك حي.. أقصد بخير!

-أمرٌ غريب..

-إذًا ما آخر شيء تذكرُه؟ ها؟

-«البوش أب» الأسود.. هذا آخر شيء أذكره!

(مدينةٌ لا ترى القمر)

سوف يكون هناك دومًا حكاية أرضٍ بيضاء، يختلط فيها الجير بالرمال، تتفتت الحجارة بينهما بلا صوت، ولا يُعرَف من سبق الآخر، مسحوق الجير أم الحجر أم الرمال..ولكن المهم أن لها أصلًا، والأصل كان هناك في جبلٍ يشبه ذلك الذي كلّم الله فيه موسى: المقطّم، المقطّع الذي لمّ شتات قمامة العاصمة، أصل الحكاية خنزير، منبوذ، كرهه المصريون لأن رأسه كان يعلو إله الشَّرِّ «سِت»، رعاه زرّاب هاجر من دير في أقاصي البلاد، قرر أن يبقى في المحروسة ليرعى خنازيرها التي تأكل قمامة القمامة بعد فرزها وبيع ما يمكن تدويره، الفكرة إنجليزية وللخنزير المصري بشرةٌ سمراء مثل بشرتنا، وليس ورديًّا كجلد الإنجليز، ثم صار لحمًا مأكولًا برغم كل شيء، وعندما ضاق الجبل بعائلات الزرّابين المتكاثرة، واستبدلت الحمير بسيارات ضخمة تحمل القمامة ووقعت الإنفلونزا في غرام الخنازير، تفتّت هذا العالم تدريجيًّا، وتناثرت أشلاؤه في المدينة كما مزّق «سِت» جسد أخيه أوزوريس في الأسطورة! ليست الأرض البيضاء سوى شلو صغير، بذرة جيدة لبداية أكثر مأساوية من ذي قبل!

الأرض البيضاء أرضٌ خصبة، لا ينبت منها الحمير والكلاب والقطط والماعز والعقارب فحسب، ولكنها تنجب بشرًا أيضًا، ولو أن إنجاب بعض البشر لبعضهم البعض عقمٌ كبير مثل الإثم الذي لا كفّارة له.. ظهر أحدهم بعد شروق الشمس بقليل، يحمل جوالًا لا لون له، محنيّ الظهر ومقوّس الساقين، كنملة تحمل أضعاف وزنها، وضع الجوال الكبير وسط القمامة بين رجليه وأمسك بحبله المتدلي يمينًا ويسارًا ليفرغ ما بداخله، القوة التي طرأت على الصغير خلقت منه (متَادور) يمتطي الثور المهزوم، يهزُّ الجوال بعنف ومهارة، وجهه الأسمر مرقّع كملابسه المتهدّلة، وحذاؤه يتسع لقدم أخرى معه، يراقب بتوقٍ ما يُسكب من القمامة أمامه وكأنه الكنز الذي ينتظره..

لا يدري «مسعد» أنه عندما وُلد لم تفكّر أمه قط في تسميته، كان الأمر محيّرًا بالنسبة لها بالفعل؛ ولكن أمره هو، كيف تتخلص من كتلة لحم تتنفس خرجت منها؟ الدمية المتحركة التي تبكي وتصرخ، شيء طرأ على حياتها مثل نبتةٍ شيطانية، كائن جاء في الوقت الخطأ والمكان الخطأ، أم مسعد لم تكن أمًّا قط من قبل، فقبل ولادته بعامين فقط كانت لا تزال طفلة غير بالغة، لم تفكّر أم مسعد طويلًا، تركت الرضيع فوق سلّم محطّة المترو، ملفوفًا في خرقة مهترئة، توقعت أن يبكي، أو يعلو صراخه، حتى أنها خشيت أن ينادي باسمها ويُفتضح أمرها، نسيت أن لا أحد يعرفها هنا، مسعد أيضًا لم يعرفها قط!

لم يبكِ الرضيع ولم يصرخْ ..فعل ذلك عندما أمسكت به إحدى الصبايا (السريحة) اللاتي يعملن لصالح «أبو غالي»، الرجل الذي يبسط سلطانه على الأرض البيضاء، ولا أحد يستطيع التعدي على مُلكه، فالأسد يرسم حدود غابته بالتبول حولها، «أبو غالي» يفعل الشيء نفسه، فضلاته تتناثر حول الأرض البيضاء وأطفاله هم فضلاته تلك، «أبو غالي، ليس زرّابًا ولم يتناول لحم خنزير طوال حياته ولكنه شيء آخر، (تاجر شاطر) فحسب.. تلقّفت مسعد أيدي الفتيات، يتسولن بمساعدته، يتغذى على ماء الأرز ولم يُرضِعْه ثدي قط، وعندما بلغ ثلاثة أعوام تسلَّم عمله، يروح ويجيء فوق عربة كارو ليفرغ محتويات الجوالات فوق الأرض البيضاء، مهمته الوحيدة هي الفرز وبالتحديد جمع زجاجات البلاستيك..

شبح ابتسامة يمر بوجهه كلما انتهى من إحصاء قطعة بلاستيكية جديدة، يتلفت بحذر قبل وصول (شياطين المزبلة)، يلتقط مسعد الزجاجات الفارغة من الأرض التقاط الهداهد للدود، في حالة بحثٍ مزمنة مثل قطط وكلاب الأرض البيضاء، لا يتأفف أي منهم من رائحة القمامة ولا يتقيأ من رؤية القاذورات، جميعهم ليسوا في حاجة إلى سد أنوفهم، كل منهم يدرك ما يريد، فلن يلتفت مسعد لأي شيء آخر، لطعام لم يفسد بعد أو قطعة ملابس متماسكة، ورق، زجاج، ألومنيوم ولا حتى الذهب قد يخطف بصره، فكأن

هاتين العينين لا تريان سوى البلاستيك..يُخبئ ما استطاع في جوال آخر ثم يرفعه فوق العربة وينطلق بحماره الهزيل ليحصل على (اليومية) بعد تسليم (الغَلّة)..

يعلم مسعد جيدًا قيمة ما يجمعه، وبرغم ذلك لم يفكر في الاحتفاظ بزجاجة واحدة ليشرب منها، لم يكن مسموحًا بذلك أيضًا، كان عليه أن يتسوّل الماء، أو يتوقف لدى كل سبيل في طريقه فيشرب الماء مثلجًا ومجانيًّا في الأكواب البلاستيكية ثم يسرقها خلسة، حتى استبدلوها بأكواب من الألومنيوم مربوطة بسلسلة في المبرد، كي لا تسرق مجددًا!

في العشة وبصحبة أطفال آخرين يعملون لدى (أبو غالي) حيث ينام الجميع في الليل فوق الأرض البيضاء يحدق مسعد إلى القمر، الذي يُحرمه طوال النهار في التجوال، يفكّر مسعد قليلًا ..نعم! كلاهما يتجوّل..كلاهما محجوب عن العيون في عز الظهر..يظل يتساءل: تراه مصنوعًا من البلاستيك هو الآخر؟ ثم يغلبه النعاس ليحلم بأنه يصعد بجواله عبر سلمٍ من النجوم حتى يصل إلى القمر، يتحسسه، يغرس إصبعه في جسده فيغوصٍ فيه، ليصدر طقطقة محبَّبَة إلى نفسه ثم يصيح مسعد:

بلاستيك ..بلاستيك!

***

اللذة التي يشعر بها «علاء» عندما يمرر أصابعه فوق أجساد العيال النائمين تخدّر إحساسه، تُنْسِيه لبعض الوقت ما فعلته أصابع الآخرين في جسده، إدمان اللذة يجعل من المرء مجرد أداة لتحقيقها، و«علاء» جرّب مسبباتها بشكلٍ عشوائيّ، ذلك التجريب المفعم باليقين، من أنه سيلتذ أكثر من ذي قبل! كل المحاولات بدأت بهدف النسيان، عكف «علاء» على ذلك بكل قوته وقدرته على ارتكاب الآثام، فقط لكي تتلاشى صورته القديمة من الذاكرة، باللباس الأخضر الفضفاض غير المحكم على جسده، المفتوح من الخلف، بالشريط اللاصق الأبيض الطويل الذي يُخفي عوار قلبه الصغير، مشقوق من أمامك ومن خلفك يا «علاء»!

«هل من أحد مع علاء أحمد جلال؟ مع من ستخرج غدًا يا علاء أحمد جلال؟»

لا أحد، لم يأتِ أحد..

ظَلَّ علاء ملتصقًا بسور المشفى، يحدّق إلى مقام الوليّ الأخضر المجاور، ربما أتت أخته في أي لحظة لكي تصطحبه إلى بيتها البعيد مجددًا، أيامًا ينتظر على قدمين واهنتين، يدعو مع كل أذان يُرفع، يأكل فتات ما يتركه المنتظرون، ولكنها لم تأتِ..

كان إثمه الأول أنه مريض بقلبٍ لا تنغلق أبوابه جيدًا، أنهكته المقاومة كثيرًا فآثر أن يظل مفتوحًا على مصراعيه، صَدِئت صماماته وعشش فوقها الفقد..

لم يجد أمامه بُدًّا من الضياع في شوارع المدينة القاسية، المدينة التي لا ترى القمر مثل قريته التي وُلد فيها، وفوق الأسفلت بإمكان الطفل أن يضيّع بسهولة معالم روحه وبراءته مثلما يضيّع بضعة جنيهات أعطته أمه إياها لكي يشتري جُبنًا أو أي شيء آخر، بإمكانه بسهولة أن ينسى سيرته الأولى..

هل كان بحوزته شيء يذكر؟

كان بحوزته العدم.. ومؤخرة!

تفرغ الشياطين بداخلها العطن المنبعث من أرواحهم الخبيثة، مرة بعد مرة تحوّل الشعور بالانتهاك إلى عدم اكتراث ثم إلى انتظار ثم إلى لذة!

فوق الأسفلت كان يرى من هم مثله، من السهل التقاط بعضهم البعض، حتى أولئك الذين يركبون السيارات، ما أن تتلاقى عيونهم حتى يُفتضح أمرهم، ذات مرة لمح علاء سائق سيارة أجرة في إشارة مرور طويلة «يقلّب فيها رزقه»، يمسك بهاتف محمول من الأجهزة الحديثة باهظة الثمن، تحتل الشاشةَ الكبيرة صورةٌ لرجل أسمر يرتدي جلبابًا وعقالًا، استطاع علاء بخفة أن يسرق الهاتف، ربما فعل ذلك طمعًا في الصيد الثمين ولكن كان

لديه فضول أيضًا..ما رآه وقرأه جعله ساخطًا على حياته، لأنهم انتهكوه عنوةً وبدون مقابل، أما هذا السائق الفَطن فكانت صفقته رابحة..

أخذت علاء الخطى والخطايا إلى عالم الأرض البيضاء، ففي نهاية كل طريق مسفلت هناك «أبو غالي» فاتحًا ذراعيه..ولأن (أبو غالي) يتاجر في القمامة، فبالضرورة لكل شيءٍ وشخص قيمة ما عنده! صار علاء بندبات وجهه الحديثة وطول قامته الملحوظ «فتوة» من فتوات الأرض البيضاء، وكل هؤلاء الأطفال تحت إمرته..كان ذلك هو كنزه الحقيقي الذي وجده: عشرات المؤخرات الطرية تحيط برغبته المحمومة من كل جانب وتبيت تحت قدميه في الليل..كان هناك كذلك قمرٌ كبير يملأ سماء الأرض البيضاء..لا يخجل ولا يتوارى خلف بنايات المدينة العالية! لم يكن مطلوبًا من علاء أكثر من ذلك: أن يشكّل خطرًا جديدًا للعيال مثل التيتانوس ولدغ العقارب والثعابين المحيطة!

يا لها من صفقة رابحة!

***

كلما سمع ذلك الصوت الذي لا يُخطأ: صوت آنية الطعام عندما توضع فوق المائدة، مد ذراعيه على الفور إلى الأمام وقبض براحتيه على ما وصلتا إليه من طعام، لا يبالي بسخونتها أو بلزوجتها، ما إذا كان يعرف ماهية ما وُضع أمامه أم لا، تلك الحركة يقوم بها «عبد الله» لا إراديًّا، حتى أن شياطين

الأرض البيضاء يتلاعبون به، فمرةً يقومون بوضع الصحون فارغةً أمامه ليمد يديه فلا يجد شيئًا، أو يستبدلون الطعام بجُرذ ميّت فيصرخ عبد الله وهم يضحكون!

الجوع والعمى أخلص أصدقاء «عبد الله»، باتت المربّية في دار الرعاية تقول له: «أنت تأكل كثيرًا»، ولكنه لم يكن يشبع قط، مر وقتٌ طويل قبل أن يكتشف «عبد الله» أنهم يطبخون اللحم، فرائحته الحلوة التي باتت تملأ جوانب البيت لا مثيل لها، في كل مرة تقترب الرائحة المجهولة رويدًا رويدًا منه حتى تصل إلى المائدة الكبيرة التي يجلسون حولها ينتظرون ولعابهم يسيل، وما إن يمدوا الأيدي ليقبضوا على الرائحة الشهية بأناملهم، حتى تفلّتت من بين أصابعهم!

حتى ذلك اليوم الذي اكتشف فيه «عبد الله» كيف تطير الرائحة، فحدث أنه كان أسرع من الأيدي التي تسرق قطع اللحم بمجرد وضع الصحون، ظلّ قابضًا على اللحم بكلتا يديه، صاح عاليًا محاولًا أن يسمي الشيء الذي يشتم رائحته ولا يعرف اسمه، فسهّل السارق الأمر عليه، حينما صاح محاولًا جذب اللحم من بين يديّ عبد الله: «سيب اللحمة! سيب اللحمة!»، نفس الصوت الذي بات يقول: «أنت تأكل كثيرًا!»!

مرت لحظات طويلة على عبد الله تمنى فيها أن يفقد حاسة السمع أيضًا، من بينها كلمات المربية لعاملة النظافة الطيبة حيث قالت وهي تضحك: «إن شفت أعمى دِبه وخد عشاه من عِبه مانتش أرحم من ربه»!

قرر عبد الله ألا يترك «عشاءه» ولا غداءه لأحد بعد ذلك اليوم، بات يبسط ذراعيه كلما وُضع الطعام، يختطف قطعة لحم أو «ورك» دجاجة، يلتهمها التهامًا في صمت كأن شيئًا لم يكن، والمربية تنهره كعادتها: أنت تأكل كثيرًا، ويقول هو في نفسه: أنا لا أشبع أبدًا!

فقط كان عليه أن يفعل الشيء نفسه على الأرصفة، أن يبسط يده أيضًا، لكي يتسوّل..ثم يبيت مستدفئًا بشخير العيال حوله.. أو فوقه، يشمُّ حرائق الأرض البيضاء المعتادة، ويطرد القيح والربو من صدره كما يطرد الكوابيس من رأسه، بعد الفجر بقليل ينهض وهو يُحصي الخطوات ثم ينبش الأرض المغطاة بالرماد ليساعد رفقائه في استخراج «قدرة» الفول المدفونة منذ أمس.. واحدة من مئات (القِدَر) المدفونة في الأرض البيضاء..

هناك متسع للجميع، تناغُم بين الحيوانات والبشر، الجميع التف حول طعامه، أطفال «أبو غالي» حول الفول وجذور البصل، والقطط والكلاب تزاحم قطعان الخراف والماعز على وجبات القمامة المجانية، وتراقب الغربان ما يتدلى من أفواههم الفاغرة، تصيد اللحظة المناسبة لاقتناص نسائل اللحم العالقة بالعظم، مائدة من السماء ومخلّص وتلامذة فوق نفس الأرض التي تتكلّس فوقها أحلام المدينة تمامًا مثلما تتعفّن قمامتها..

(ما عرفه السيد چون)

«لقد جَمَعْنَاكم اليومَ لكي نطلعَكم على خطتِنا المقبلة، إنكم أفضل العناصر التي وقع عليها الاختيار لإنجاز المهمة، نشكر لكم مجهوداتكم المتواصلة في التدريب طوال السبع سنوات السابقة، والآن سيتم الاختيار بشكلٍ عشوائيّ، لأن جميعَكم يتمتّع بالمواصفات المطلوبة اللازمة، فكّرنا في الأخطبوط «السيد چون» وهو حفيد الأخطبوط الأشهر «بول»، سوف يختار أربعين متطوعًا لرحلتنا الأولى إلى كوكب المريخ، هؤلاء سيبنون أول مستعمرة على ظهر الكوكب، وأحب أن أذكركم-مثل العادة- أنها رحلة بلا عودة..تجريبًا للحياة فوق الكوكب الأحمر ولن يتمكن الوافدون من العودة مرة أخرى إلى الأرض..بالمناسبة سيرافقكم السيد چون في الرحلة..لقد اشترتْه المنظمة..حظًّا سعيدًا!».

لَكَم أشعر بالمهانة، ماذا يريد هؤلاء الحمقى؟ ما فائدة نقل أخطبوط راضٍ جدًّا وسعيد بحياته القصيرة في المحيط إلى هذا الحوض الصغير؟ ما فائدة أن يقدموا لك أشهى ألوان الأطعمة ويبعدوك عن وطنك؟ ثم إنهم

يدمرونك مثلما يدمرون كل شيء..تقولون إني ذكي! بل أذكى مخلوق من بني جنسي.. إذًا ألم تروا رأسي الكبير؟ هل يحسب هؤلاء أنهم يستطيعون خداعي؟ البشر حمقى يا «أوكتا»..

غير أنني لستُ چون! كل هذا التحريف والتشويه؟! إنهم يخططون لشيء سيء، أشعر بذلك، السر ليس في رأسي الكبير فحسب يا أغبياء، ماذا تنتظرون من مخلوق بثلاثة قلوب؟ إنه يشعر كما لم يشعر آدمي من قبل! بل إنني أتميّز في ذلك عن سائر الأخاطب، كنتُ الوحيد الذي استطاع تقبيل زوجته، فقد يُقتل أحدهما بالسم لو فعل ذلك! ظلت زوجتي «أوكتاڤيا» تبتعد وأنا أقترب منها، أمدُّ الأرجل مني لتلتحم معها، وهي تلّوح من بعيد، كَتب «أوكتا» إليها مئات الرسائل بالحبر فوق الماء: أن اقتربي أوكتاڤيا، شعر «أوكتا» بالحب وكان «أوكتو» جائعًا إلى ضمتها بينما يخشى «أوكتي» الوحدة ولا يأمن إلا بوجودها.

واقتربت أوكتاڤيا، وقبّلتُها في المحيط، كانت خيوط الشمس تتساقط من أعلى، أمسكت برجليها وسبحنا معًا في النور! حدّقت إلينا سائر المخلوقات البحرية، الكل يترقب سقوطي أو سقوطها، حتى سمكة القرش توقفت لتشاهد القبلة الأولى من نوعها، فوجئتُ بمكافأة كبيرة منها، أتدري ماذا كانت يا «أوكتو»؟ كانت لحمًا آدميًّا!

(يدور حوار بين قلوب الأخطبوط الثلاثة أوكتا وأوكتو وأوكتي)

-أوكتو: ولكنهم يقدمون هنا طعامًا جيّدا!

-أوكتا: اصمت أيها القلب الجائع!

-أوكتو: لماذا لا تأكل فحسب؟ أنا جائع!

-أوكتي: كفوا عن الشجار أرجوكم، أنا خائف..وأشعر بالحيرة..ماذا أفعل يا أوكتا؟

-أوكتا: ألا تشعران بالغربة في هذا المكان؟ هل نسيتما المحيط الكبير؟ الماء هنا نظيف جدًّا..مقرف!

-أوكتو: نعم الماء نظيف وخالٍ من السلطعون الذي أحبه..

-أوكتي: أنا خائف ..أرتعد من الخوف..

-أوكتا: كفّ عن هذا الدق يا «أوكتي»، أريد أن أفكّر..

-أوكتو: هكذا هو أوكتا! يفكر ثم يفكر ثم يفكر ثم يُفرز الحِبر!

-أوكتا: لا تعرف شيئًا يا أوكتو، هناك شيءٌ سيء يحدث هنا، إنهم يخططون لسفر طويل، ربما رحيل، سيأخذوننا معهم!

-أوكتي: لا لا أنا متردد، أنا لا أعرف الأماكن أيها أكثر أمنًا..

-أوكتو: طالما سيطعموننا لا مانع لديَّ..

-أوكتا: لا تستمع إلى هذا الجائع يا أوكتي، هل تذكر كيف كنا نمرح معًا حول جزيرة عيد الميلاد؟

-أوكتي: أنا دائم الخوف يا أوكتا، ولكن تلك المرة أشعر بأنني سوف أتوقف!

- أوكتا: أحتاج حدسكما القوي، أحتاج إلى الدعم والمساعدة، ما فهمته أن هؤلاء يريدون ترك الكوكب الأزرق وسيرحلون إلى آخر أحمر اللون، سيبنون بيوتًا ويمكثون هناك وسيأخذوننا معهم، الكوكب مليء بالمخاطر!

-أوكتو: هل تصدّق يا أوكتي؟ كيف أصدق هذا الكلام؟

-أوكتا: اسمع أيها البدين، سنعمل على إفساد هذه المهمة..

-أوكتو: وكيف ستفعل ذلك أيها المجنون؟

-أوكتي: أنا خائف يا أوكتا، أرتعد من الخوف والبرد..

-أوكتا: هذا ما أحتاجه منك يا أوكتي، دلني إلى الخائفين مثلك، أنت تشتم رائحة الخوف والرعب..أما أنت يا أوكتو سيكون عليك اختيار الجائعين أمثالك..ستعرفهم بسهولة، أليس كذلك؟

-أوكتو: ومن ستختار أنت؟

-أوكتا: سأصمت بالطبع، لو اخترت من هم مثلي ستفشل مهمتنا وتنجح مهمتهم بكل تأكيد!

تراصت الأحواض الزجاجية والتي تمتلئ على الجانبين -بالتساوي- بالطعام المحبّب إلى الأخطبوط، تم لصق علم كل دولة يمينًا ويسارًا بينما يقف كل متطوع خلف علم بلده، وبدأ الأخطبوط عملية الاختيار..

رفض الأخطبوط أن يميل جهة اليمين أو جهة اليسار في أي حوضٍ من الأحواض الزجاجية، قام بحركةٍ واحدة كررها في كل مرة: بات يُلصق رأسه بالحوض الزجاجي في المنتصف بعنف ثم يفرز الكثير من الحبر!

لم يكفّ الأخطبوط عن تلك الحركة، حتى بعد إبعاده عن الأحواض والبشر والأعلام..

«نأسف لهذا العطل، تقرر وقف عملية القرعة بواسطة السيد «چون» الأخطبوط، نظرًا لتدهور حالته الصحية، على أن يتم إعداد السيد «ميلا» الببغاء لاختيار المتطوعين الراحلين إلى المريخ.. بلا عودة..حظًّا سعيدًا».

(باب سدرة)

الأضواء.. بيض وحمر وصفر وخضر..تتدلّى لا أعلم من أين، تبرق فوق رؤوسنا وفوق صوان الخياميّة الدائر حول مدخل حارتنا، في المنتصف هناك ما يلتف حوله الجميع، أقف على أطراف أصابع قدمي كي أراه، لا أستطيع، كل المقاعد مشغولة بأصحابها، كل المقاعد متشابهة، برز فجأة وسط الزحام، من باطن الأرض، هكذا خلتهُ، يحفُّه الريشُ من كل جانب، يخرجُ من رأسه الكبير، مطوقًا ذراعيه المفتولتين وخصره الرشيق وكاحليه، يهزُّ جسده بعنف على الإيقاع، وشعره الخشن الكثيف يتكتّل تحت إبطيه، أما وجهه فقد لطخته ألوان جعلته مخيفًا بعض الشيء، والغريب أنني رأيتُ سمرته الشديدة كضوءٍ أكثر لمعانًا وإشراقًا من كل تلك الأنوار..

«يابو الريش إن شالله تعيش»..هتفتُ مثلما هتف الأطفال حوله، أخذ بيد كل منا ورقص معه، أما أنا فحملني ولفّ بي مسرعًا فأحسست بدوار لذيذ مَزَج كل شيء حولي ببعضه البعض، وعندما توقف وأنزلني، ملأت رائحةُ عرقه أنفي الصغير أكثر مما ينبغي ففاضت منه، اختل توازني وشعرتُ بجسدي يدور ثم يهوِي على الأرض ويا لعجبي لم أقع! اتضحت الرؤية

وبرز العروسان الجالسان في «كوشة» تعج بالزهور المتناسقة، ولكن طغى الثوب الأبيض المنفوش على كل ما حوله، على ملامح العروس وعلى طول قامة العريس، وحتى على صخب الموسيقا المبهجة، انفض الجَمع بالتدريج وراقبتُ انطفاء الأنوار ولملمة الكراسي والبُسُط، اختفى الصوان الكبير وعادت الحارة إلى إظلامها الغالب المعتاد، وفي تلك الأثناء، شاهدت «أبو الريش» شبه العاري يرتدي ملابسه أسفل إحدى المنازل، كان صادمًا أن اكتشف كونه إنسانًا عاديًّا يشبه الجميع..

أقف ذاهلةً أمام تلك الصورة المسحورة المعلقة على جدار صالة الاستقبال في بيت جارتنا، فتاة الجيشا في بهرجٍ فضي خلفها أشجار «الويستريا» تُغلق إحدى عينيها الضيقتين كلما تحركتُ يمينًا أو يسارًا: افتحي.. أغلقِي.. افتحي.. أغلقي.. تفرُّ دائرة معدنية صغيرة من عقد أمي الطويل، ألتقطها وأضعها كالقرط في أنفي، مقلدةً الطفلة الهندية وقد ألبسوها الذهب في صورةٍ فوق الجدار المقابل، أما نحن، فلم يكن لدينا سوى لوحة الطفل الباكي الشهيرة، والتي كانت تُباع بجنون فوق الأرصفة، وكان الجميع يشتريها ولا يدري أيٌّ منهم أنها بمنزلة تعويذة أوروبية ضد الحرائق!

كان بديهيًّا أن أرقص، كل الأشياء في «باب سدرة» ترقص، البيوت والأقمشة البراقة عند مداخل المحال، الترام وأقدامنا المتأرجحة فوق مياه

الصرف ومصابيح أعمدة النور، وأبي السكير يعود مترنحًا في الظلام، ودموع أمي.. حتى عمود السواري كنتُ أراه يرقص!

في المدرسة، أشارت مدرّسة التربية الرياضية إليّ: «أنتِ، سأضمك إلى فريق الرقص الإيقاعي»، سمعتُ كلمة «رقص» فابتهجتُ، حتى صار الأمرُ بالنسبة لطفلةٍ تحاول أن تظفر بطفولتِها بمنزلة البهجة الوحيدة.. الصغيرة ذات الشعر الأسود الطويل، يقع عليها الاختيار كي تتوسط الفتيات في العروض مثلما تتوسطهن في «افتحي يا وردة»، تحرك منها شفتاها مع كلمات الأغنية ممسكةً بكرات الزينة الورقية المفضّضة رافعةً إياها إلى أعلى وأسفل.. يمينًا.. ويسارًا..

في يوم شتوي، جمعتنا معلمتي وانتقلت بنا إلى حدائق «المنتزه»، كانت تلك المرةً الأولى التي أغادر فيها «كرموس»، ظننّا أنها رحلة مدرسية مجانية، أبصرنا من بعيد قصر المنتزه الأبيض ثم وجدنا أنفسنا فوق بساطٍ أخضر، كلما مشينا صعد بقلوبنا معه إلى أعلى، تكسوه الأشجار والنباتات المزهرة المدهشة في جمالها وندرتها، تنتهي الخضرة إلى زرقة، البحر! الشيء الوحيد المألوف هنا، والملاذ الذي يغسل تطلعات الفقراء ويبتلع بداخله نظرات الحرمان في مآقيهم، يكاد يخلو المكان إلا من أزواج العشاق المتدثّرين بالملابس الثقيلة.. الأيدي في الأيدي، وبخار الماء المتصاعد من أفواههم متداخلًا يعطّر الهواء برائحة الأشواق حولنا..

بعد ساعة من اللهو البريء وصلت حافلة كبيرة هبطت منها مجموعة من الأطفال المتأنّقين، بصحبة عدد من الرجال يحملون معدات ثقيلة وآلات تصوير، تأملنا ثياب الأطفال الجميلة الملونة، فبدأت المعاناة، علا نحيبُ البعض، وشعر آخرون بالغيرة فاختلقوا معهم شجارًا يتخلله السباب البذيء، كثرت تساؤلاتنا حول سبب مجيئنا إلى هنا ولماذا علينا أن ننتظر مع هؤلاء بالزي المدرسي وكل منا قد أخفي – على الأقل – رقعةً في كنزته الصوفية وجرحًا قطعيًّا في حذائه، حاولت المعلمة أن تمتص غضبنا وشعورنا بالانكسار قدر استطاعتها، بعدها بقليل بدأنا نفهم أن أمامنا عملًا مع رجلٍ وسيم رأيناه يترجل عن سيارته الفارهة ويخلع نظارته الشمسية في حركةٍ رشيقة.. قالت المعلمة هو المخرج وقد طلبكم من أجل الظهور على شاشة التلفاز.

تقافزنا فرحًا، تقدّم نحونا (الـچَان) بابتسامةٍ آسِرة.. سلّم على مساعده سلامًا حارًّا وألقى علينا تحيةً مفعمة بالبهجة جعلتنا نتضاحك فيما بيننا..بدأ يتفقّد الآلات مجربًا بنفسه كل شيء ثم لمحني وسط جموع الأطفال فاستقدمني نحوه مشيرًا إليّ بيده، اقتربت دون تردد ودار أول حوار بيني وبينه:

– ما اسمك؟

- فرح..

- أنتِ جميلة جدًّا يا فرح.

ابتسمتُ له وأنا أشعر بالخجل الشديد، فتهللت أساريره وهو ينادي أحد أفراد الطاقم يطلب منه إيجاد ثوب مناسب لي، فأنار وجهي بالفرح، لم أشعر بسعادة مماثلة قبل تلك اللحظة:

-حالًا سنشغّل أغنية، أريدك أن تحفظي كلماتها جيدًا يا فرح، لأنني سأصوّرك وأنتِ تغنينها.

انطلقت معلمتي نحوى ممسكةً بالثوب الجديد، هكذا كنتُ أعتقد، توجهنا معًا إلى المرحاض العام وبدلتُ ملابسي المدرسية الرمادية بالفستان المصنوع من «الأورجنزا» بورودٍ صغيرة مطبوعة على خلفية من «السيمون» الهادئ، وبكمين قصيرين منتفخين أعلى الكتفين.. هل كنتُ وقتها أسعد طفلة في الإسكندرية؟ أخذتُ أدور وأدور وشعري الطويل يدور معي، لا أبالي بالبرد ولا برذاذ المطر الموشك على الهطول فوق رؤوسنا، رمقني الأطفال في استغراب: من أين أتيتُ بهذا الثوب؟ هرعتُ إلى المخرج الوسيم كي يراني في حلّتي الجديدة فأمسك بيدي ورفعها إلى فمه ثم قبّلها:

-مثل القمر يا «مودموازيل» فرح، هل تتزوجينني؟

أومأتُ برأسي إشارةً إلى موافقتي، ثم عكفتُ على الأغنية حتى حفظتُ كلماتها عن ظهر قلب:

«كان ياما كان... ست الفراشات

بالحيوية.. وكل نشاط

تجري على الأزهار من بدري

تسبق زمايلها الفراشات..»..

بدأ التصوير ووجدتُ مخرجي الوسيم يتزلّج فوق قضيبٍ ممتطيًا الكاميرا السوداء مثل فرس، أسلمتُ نفسي إلى موسيقى القالس الساحرة وعشتُ دور «ست الفراشات» التي سبقت قريناتها، غنيتُ مع صوت الفتاة المنبعث من السماعة الكبيرة مدويًّا في أرجاء الحديقة الغنّاء، ورقصتُ بل طرتُ من دون أجنحة، كان بطلي متفاعلًا مع رقصي وأخذ يرسم جناحين هو الآخر بذراعيه مع الإيقاع أكثر من مرة، ضحكتُ له مثلما كنتُ أرقص له.. هو وحده..

أفقتُ من حلمي القصير، عدتُ إلى ملابسي القديمة، ودّعتُ الثوب الوردي، والمنتزه وبحرها وخضرتها وحتى المجموعة المتعالية التي تضايقت من وجود أطفال «كرموس» الفقراء فيما بينهم، دسّت المعلمة في يدي خمسين

جنيهًا وأنا أعطس! وقالت: لا تخبري أحدًا، وجدتها تضع في أيدي كلٍّ من زملائي عشرين جنيهًا فقط، صاح جميعهم في فرح مهللين راضين، ثم شرعوا في عَد الأشياء التي سوف يشترونها بمال غير متوقع، كان الأجدر بـ«فرح» أن تفرح مثلهم ولكن تزامنت الأمطار الهاطلة بغزارة مع دموعها الصامتة محاولةً التعافي مقدمًا من فقد فارس الأحلام الذي قبّلها وطلبها للزواج!

تمر السنون، ورحل أبي الذي لم أملك إلا أن أحبه، ربما لأنه ليس بمقدوري أن أحصل على أب آخر، ثم رحلتُ مع أمي عن «باب سدرة»، تركنا «كرموس» وفارقنا «شط إسكندرية»، وانتقلنا إلى القاهرة للعيش وسط أهل والدتي الأرملة الشابة، التحقتُ بمدرسةٍ جديدة وسرعان ما استعادت الطفلةً شغفها بالرقص، فعملتُ موديلًا في الإعلانات والاستعراضات وأغنيات الأطفال، كان فارسي «كلمة سر» البوابة التي أشرقتُ من خلالها على عالم طفولي بريء مليء بالمفاجآت والبهجة والشهرة الصغيرة التي التصقت بطفلة يتيمة لا يعنيها سوى أن ترقص برغم كل شيء، فتاة تتأرجح بين الطفولة والمراهقة، تكسب مالًا تضعه كله في حجرِ والدتها التي كانت تلازمها أينما ذهبَت..

التحقتُ بمعهد الباليه بناءً على نصيحة بطلي، وكافأني بعد تخرجي بدورٍ رئيسي في مسرحيةٍ من إخراجه، كنتُ فيها «إسمين» المدللة أخت «أنتيجون»

البطلة، والتي لعبت دورها «فريدة» صديقتي الوحيدة..كانت المكافأة العظمى حقًّا: أن أراه كل يومٍ وأشتمُّ عطره الذي لم يغيره قط على مدار كل تلك السنوات، أجلس قبالته ليحدثني فلا أستطيع أن أغادر فكرة حبه.. من الصعب أن يتجاوز الإنسان الحب عندما يصير فكرةً، فيتأصل في عقله بمنطق ومبرر أكثر من رقاده في القلب الذي لا يعي المشاعر!

ثم في المعهد العالي للباليه، فريدة وأنا، عامًا وراء عام ننجح ونرسب معًا، من يرانا يحسب أننا أختان، يتصارع علي حبنا نفس الشاب، نوقعه بالحيلة في شر أعماله: محاولة التفريق بيننا، ثم نضحك ثم تواسي كل منا الأخرى بضمّتها، عندما تخلو غرفة التمرين، نستأثر بالأرض وحدنا، أنا وهي و«قضية عم أحمد»، بجعتان هجرتا تشايكوڤسكي وبحيرته، لتستقلا معًا ندفة من السحاب فرقصتا بين يدىّ عازف «القانون» على نوتة «عمر خيرت» الفنان، الذي أثبت أن الأذن كانت في الأصل أجنحة! كان من الصعب ألا يختطفها الـڤيديو ومن بعدها السينما، أولى بهذا الوجه الجميل بمواصفاته القياسية أن تُسكب فوقه الأضواء.. فرحتُ لها من كل قلبي، حتى عندما ذهبنا معًا للاختبار ذاته ووقع اختيارهم عليها دوننا جميعًا لبطولة المسلسل الشهير، كانت تدرك طريقها وأهدافها جيدًا وكنتُ لا أزال أتحسس طريقي..

سألتُه ذات يوم عن الفرق بيننا، «الفرق بينكما كبير جدًّا يا فرح»، قالها فارسي بجديّة، «قشرتُها في لون الحنطة قبل أن تضمها الشونة، أما أنتِ فبشرتك لؤلؤ عاجي في عصرٍ برونزي، فريدة حوراء بشعر في لون الإثمد المتطاير من الحجر الأسود، أما أنتِ فعيناكِ من رماد المحترقين بفتنتك، وشعرك هو الأسود الأسعد ذاته، الفرق بينكما طولٌ فقتِها فيه، وأنفٌ قيصري جَعَلت من أنفها الدقيق كائنًا يتضاءل أمام كبريائك..».

-إذن لماذا يختارونها هي في كل مرة؟ لماذا أعطيتها أنت نفسك دور البطلة «أنتيجون» وأسندت إليَّ دورًا..آخر..؟ لماذا؟

-لأنها ليست أنتِ، فريدة وإن كانت موهوبة في التمثيل لكنها ليست في حجم موهبتك كراقصة يا فرح، على كلٍّ ليس هذا كل شيء، فريدة امرأة صالحة لكل رجل وأي رجل، طيّعة، أما أنتِ فلستِ لأحد، امرأة عصيّة على الرجال. فريدة مثل «چوزفين بيكر» في انطلاقها وخفة ظلها وجنونها، أما أنتِ يا فرح فتذكرينني بـ«چالا دالي»، أيقونة الإلهام والسحر والحب، مهما تبدُ قريبة إلى الأيدي فلا شيء يُدني روحها أبدًا، فالموت إلى ذلك أقربُ..

-لأول مرة أسمع منك هذا الرأي، وأنت؟ من تفضّل؟ چوزفين أم چالا؟

– كوني مخرجًا بالطبع «چوزفين»، أما كوني رجلًا فأفضّل «چالا» على حزنها وحكمتها وحبها لذاتها، وعلى علمي أنني لن أظفر بقلبها أبدًا.

شعرتُ بالارتياح لأنه أنصفني كأنثى، واشتفى فؤادي المُعذَّب في حبه، وأبيتُ أن أريح قلبه بكلمة، لا أدري لماذا..

انقضت سنوات وأنا زوجة مخلصة للباليه، أرتكز على الحرمان من فارسي الراحل في هدوء وهو نائم، أقف منتصبةً فوق ألمي في وضعية En pointe.. صارت لي ذكرى في كل بلد وفي كل عرض، نجم فريد يعلو بينما أرعى أنا نجومًا صغيرة في مدرسة باليه امتلكتُها في الإسكندرية، العودة إلى «باب سدرة» بعد رحيل أمي كان أمرًا حتميًّا، وفي الوقت الذي كانت فيه فريدة ترقص وتتعرى «ع الواحدة والنص» في فيلمها الأخير، كنتُ أنا أتقمص الدور الذي رسمه بطلي لي بإتقان: استعصيتُ على كل الرجال، كما رآني.. أو كما أراد لي أن أكون!

(إستغماية)

-هنلعب إيه؟

قالها أكبرهم في حيرة، فقد تجمّع أطفال العقار بعد أداء فروضهم المدرسية ليلة الجمعة كالمعتاد ولم يكن أحد منهم يخطط للعبةٍ في ذلك اليوم بالتحديد، أصابت جميعهم حالة هدوء مفاجئ لا تليق بثلة الأطفال الذين لا تتعدى أعمارهم عشر سنوات، ولكنه يناسب قمر الليلة البازغ في السماء إذ كان واحدًا من الأقمار الحزينة التي تبرق لفترةٍ قصيرة ثم تختبئ، كأنما سقطت من أعلى، وتترك للنجوم مهمة السهر الطويل وحدها حتى مطلع الفجر..

لّما خيّم الصمت، ووجدوا أن الوقت المسموح لهم باللعب أوشك على النفاد اتفق الأطفال على إجراء قرعة فيما بينهم، «كلوا بامية» في إمكانها حل الموقف والخاسر سيكون مسئولًا عن ابتكار لعبة جديدة تنقذهم من الملل..

اجتمعوا تحت شجرة بونسيانا كبيرة برتقالية الزهر، الشجرة ليست عتيقة ولكنها أيضًا لم تعد صغيرة السن، فالحي الذي يسكنه ثلة الأطفال الخمسة يعتبر من الأحياء الجديدة، ومسكنهم واحد من مئات العقارات المحيطة

المتشابهة، تستطيع أن تقول: إنه (مجمّع سكني للشباب) ومن حسن الحظ أن الجراج المخصص للسيارات دومًا ما يكون فارغًا وليس به سوى سيارة أو اثنتين فصار مرتعًا واسعًا للَّعِبِ..

اختارت «كلوا بامية» «مصطفى» ليكون هو صاحب لعبة الليلة، ولم يكن يتوقع ذلك ولكنه شعر بالسعادة وأحس بأنها فرصة جيدة لفرض بعض السيطرة على الجيران الأصدقاء والذين عادةً ما يعاملونه باستخفاف، فهو المكلّف دائمًا بإحضار الكرات البعيدة ولو لم يكن يلعب معهم وهو الذي يبحث عن الطوب المناسب ويحمله إلى المرمى، غير أن هو من يصعد إلى بيته في الطابق الرابع لإحضار زجاجة مياه مثلجة في الخفاء أيام الصيف لكي يشرب الجميع..ثلة الأصدقاء أرغموا مصطفى ذات يوم كي يضع سُمًّا للكلاب التي لا تكفُّ عن النباح، كان عليه أن يمسك بسم الفئران ويقذفه في صندوق القمامة في أثناء تقافز كلاب الحي الجائعة بداخله، كادت أنياب أحدهم تنغرز في ذراع مصطفى، وظل يجري مرتعدًا حتى صعد إلى منزله وأصدقاؤه يضحكون!

ولكن كيف يستغل مصطفى الفرصة؟ خطرت بباله أشياء عديدة كلها سيئة مثل اصطحابهم إلى شقة الطابق الأرضي المظلمة في العقار نفسه والتي تربَّى بداخلها عائلات من الفئران الجبلية، تخيّل لو كان في إمكانه إقناع

الفئران الجائعة كي تقرض أطرافهم وتتشبث بوجوههم، فكّر مصطفى طويلًا في الألعاب القتالية، ماذا لو كان بحوزته سيفًا حادًّا قاطعًا وألبس كلًّا منهم ثوبًا على شكل فاكهة ما ثم يلعب النينـجا في أجسادهم كاللعبة التي على هاتف أبيه المحمول؟

ولِمَ لا يلعبون «إستغماية» فيهرب مصطفى إلى الجوار، إلى هذا السياج الأخضر العالي الذي يحيط بالبيوت الجميلة؟ عندما رآه للمرة الأولى كان مع والدته عند عودته من المدرسة، سألها عنه فقالت: اسمه «كومباوند».. فقال لأمه ببراءة متأملًا السياج العالي: همّ مسجونين جوه؟ ضحكت مَمْرورة وقالت: لا احنا اللي مسجونين بره، لم يفهم مصطفى ما تعني أمه ولكنها بدأت تشرح له قائلةً:

-دول ناس أغنيا قوي عندهم قصور..

-قصور زي اللي في الجنة؟

-اللي في الجنة أحلى يا مصطفى..

-إيش عرفك يا ماما؟ هو انتي رحتي الجنة؟

-لا قريت في المصحف.

-طب أنا عاوز أدخل جوه.

-ما ينفعش يا حبيبي لازم تكون ساكن جوه.

-زي السجن يعني.

-إزاي بقى؟

-لازم أعمل حاجة غلط عشان أدخل السجن.

مصطفى على دراية تامة بالسجن، طفل في التاسعة من عمره عاصر ثورتين وأسقط رئيسيْن، حفظ عن ظهر قلب «أنا بحبك يا بلادي» وهو في الرابعة، هتف فوق كتف أبيه في الميدان «الشعب يريد إسقاط النظام»، شاهد أطفالًا مثله يُذبحون في مباراة لكرة القدم، ولعب مع جيرانه «عسكر و(إخوان)» يعرف جيدًا كلمة سجن!

ينظر مصطفى إلى سور «الكومباوند» البعيد المُضاء متذكرًا حديثه مع أمه ثم سيطرت عليه فكرة أخرى بعيدة عن الانتقام من جيرانه وحلم الحصول على «تابلت»، كانت رغبته شديدة في الاختباء، جال بخاطره أن تكون لديه القدرة على الارتفاع إلى أعلى، أن يسبح في الهواء، مصطفى الوحيد بين أقرانه في الفصل الذي أجاب عن السؤال المعتاد: «ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟» قائلًا:

-رائد فضاء..

في حصة الرسم وجد مصطفى نفسه يرسم كوكبًا أخضر اللون ويتهجّى الحروف بمشقة وهو يكتبها أسفل الورقة:

-ك..و..م..ب..ا..و..ن..د..

أيوه.. كومباوند الجنة..

-هنلعب إيه؟

صاح الأطفال بمصطفى فردّ قائلًا:

-إستغماية! بس من غير (خلاويص)..

استدار «يوسف» -أكبرهم- مغمضًا عينيه وخبّأ رأسه بكلتا ذراعيه ثم استند إلى حائط العقار الملطخ بالسباب وصاح:

-ساندوتش!

أخذ مصطفى والآخرون في محاولة الاختباء وهم يرددون معًا بصوتٍ مرتفع:

-لسه جعان!

-ساندوتش!

-لسه جعان!

كان مصطفى يجري بأقصى سرعة، مع كل خطوة كان يحسب أنه يخرج من سيطرة اللعبة، مع كل خطوة كان فقط يخسر عامًا من عمره، حاول القفز مرارًا ضد الجاذبية ليسبح في الفضاء كما أراد، فكانت النجوم تخرج ألسنتها له من أعلى، تنظر إليه بعيون منتفخة، لم يعد مصطفى إلى «الأُمّة» ولم يمسك به أحد ولكن برغم ابتعاده عن ثلة الجيران الأشقياء ظلّ يصيح بأعلى صوته: لسه جعانّ!

(قص ولصق)

على عتبة البيت، وقبل أن أعدو إلى داخله بمشقةٍ، أغمض عينيّ وأنا أجذب روائح الأطعمة المختلطة بتلذذ، حيث تنبعث من أغلب شقق العقار الذي تسكن به جدتي في الوقت نفسه عند كل زيارة، فتلك ملوخية (عديلة) لا ريب، بصدرها الكبير المكتنز، والذي يكاد يمزّق جلبابها القطنيّ الأصفر، وذاك محشي الكرنب الذي تصنعه (سامية) وهو الوحيد من نوعه، مؤخرة سامية العظيمة أيضًا فريدة من نوعها، لم تكن تحشو سامية لفائف الكرنب المسلوقة بل كانت تكتفي برصّها في صينية ألومنيوم وفوقها خلطة الأرز باللّية، طبقاتٍ فوق طبقات، ثم يُقطّع على هيئة (خُرَط).هكذا كانت تتخلص من إلحاح زوجها لعمل المحشي وفي الوقت نفسه لا تجهد روحها في لفه، أما رائحة هذا السمك المشويّ على صاجة بابّور قديم فهي بالتأكيد آتيةٌ من شقة جدتي التي لم يكن بابها محكم الغلق قط إلا عند النوم ..

كنتُ محاصرًا بشكلٍ ما بين هاتين المرأتين منذ الطفولة، (عديلة) هي الابنة الكبرى لوالديها، لم أكن أشعر بفارق كبير بيني وبينها في الطول ولا في العمر أيضًا، اعتادت صبغ شعرها القصير بالحناء وارتداء جلبابها الأصفر المطرّز

فرعُهُ بخيوط حريرية يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث نقوم عادةً بزيارة جدتي. كطاهية ممتازة وأنثى سخية الصدر هكذا، شعرها أحمر وضحكتها لا تفارق وجهها -وإن بدت بلهاء- جميعها أسباب كافية جدًّا بالنسبة لي على الأقل لكي تتزوج مبكرًا وقبل أخواتها، بل كنتُ سأفعل لو أعطيتُ تلك الفرصة الذهبية، ولكن في الحقيقة نَفَرَ منها الرجالُ لِقصر قامتها الملحوظ وبطء نموها العقلي فانتشر هذا اللقب الذي بات جميعهم يهمس به في العقار بل في الشارع كله فكلما لمحوها تغامزوا فيما بينهم: عديلة العبيطة ..

كان ممتعًا أن أراقب (عديلة) في أثناء تخريطها للملوخية فوق (الطبلية)، فيهتز نهداها والسلاسل والدلاّيات التي تعلوهما تخشخش مع أساور يديها الذهبية، والتي تناقصت مع مضي الزمن، تنثر بعض فصوص الثوم وقرن فلفل حريف رشيق تحت المخرطة لتمتزج جميعًا بأوراق الملوخية، كانت بيضاء ويحمرّ وجهها إذا وقفت أمام الموقد في المطبخ الضيق، تخرج منه وهي تتصبب عرقًا في الصيف، كانت تحبني وتجلسني أمامها وكثيرًا إلى جانبها، تحتضن جسدي وتقبلّني، أصطدم بصدرها، أغمس إصبعي فيه أحيانًا، صدرها السخي المكتنز ظل يتضاءل مثل مصاغها وبدلًا من شموخه عاليًا صار مترهلًا وضعيفًا مع السنوات..الشيء الذي لم يتغير كان الرائحة التي تنبعث منها: مزيج أوراق الملوخية ورائحة النشادر النفّاذة المعجونة بطمي

الحناء، لم تكن تبرحها تلك الرائحة قط، حتى بعدما توقفت عن صبغ شعرها وسرت الخصلات البيضاء بوضوح فيه، ربما ظلّت الرائحة تسكن أنفي أنا لا جسدها هي!

أما (سامية) فكان بيتها هو أول ما نمر به في أثناء صعودنا، عتبتها لم ينفض عنها غبار الشارع قط، كان الجميع يخطو إلى داخل شقتها لإلقاء التحية أو للتذرع بالسؤال أو للشرب أو للاحتماء من غلّة يومٍ صيفي، وكانت هي بصورةٍ ما حارسة العقار والأمينة على سكانه في غيابهم قبل وجودهم.

بعد سفر زوجها الطويل إلى (العراق) ثم عودته خاوي الوفاض وجدت نفسها أمام قدرها المحتوم بضرورة العمل لتربية ابنها الوحيد الذي أنجبته (بعد شوق وعطش) كما اعتادت أن تقول، لم يكن لديها شيء تستطيع تعلّمه سوى بعض فنون التجارة فوجدت نفسها تعمل دلّالةً، إضافةً إلى مؤخرتها العظيمة اعتادت سامية أن تحمل شيئًا، لا تمشي أبدًا بيدٍ خاوية، صوتها المتحشرج وأسنانها المتباعدة عن بعضها البعض وسمنتها الملحوظة التي تنمُّ عن كونها (بنت عز)، خفة الظل والبكاء الفوري في المآتم مصحوبًا بصياح ندّابة محترفة، كل ذلك كان يجتمع أمامي على عتبة البيت كلما شممتُ رائحة كرنب سامية المرصوص في صينية، (خلطبيطة) حياتها التي اختصرتها في وجبةٍ أهم ما يميزها ضيق الوقت وقصره، كانت عجيبة ومثيرة للدهشة فيما

بعد لأننا لم يخطر ببالنا أنها سوف تموت بعد وقتٍ قصير أيضًا، قبل أن تبلغ الأربعين وقبل أن يلتحق ابنها بالمدرسة الإعدادية وقبل أن يكفَّ زوجها عن التكاسل والاتكال عليها في كل شيء، ماتت سامية وقد كست وجهها زرقة مصارع في الحلبة، بدت كأنها لم تستسلم للموت، قاومته وحاولت أن تفلت من أجل البقاء لوقتٍ أطول!

ظل رأسي محشورًا بين صدر عديلة ومؤخرة سامية، وكنتُ ألعب (القص واللصق) فأصنع امرأة أخرى تجمع بينهما في بدنٍ واحد، امرأة تمتلك خام الأنوثة بصفاتها وقدراتها وغريزتها مثل عديلة ورجل بمؤخرة كبيرة تستطيع أن تعتمد عليه مدى حياته وحتى آخر رمق مثل سامية، اكتشفت مع مرور الأيام أن تلك المرأة كانت جدتي!

(قَطْرٌ الندى الأحمر)

هناك أشياء مهما تبلَغ كراهيتك لها لا تستطيع أبدًا أن تمنعها من الحدوث، شرارةٌ صغيرة أشعلت حريقًا، دَفْعة ضعيفة قذفت أحدهم في بالوعة، زَلّة لسانٍ أخرق أودَت بحياة إنسان، تمامًا مثلما حدث لي عندما سألتني أمي ليلة «الصباحية»: «ها ما الأخبار؟ » قلتُ لها: «لا شيء». .ماذا لو كنتُ تكتّمتُ الأمر وتظاهرت بأن لا شيء يؤرقني فعلًا؟

لا أحد سيفهم أبدًا كيف أفكّر، متى تفهم أمي أن كل ذلك الصراخ والتهديد والوعيد الذي أتلقاه منها كل ليلة منذ اليوم المشؤوم لم يعد مؤثرًا؟، هل تحسب أنني سأتركه؟ هل تصدّق نفسها فعلًا بعد كل ما قصصتُهُ عليها؟

مَن أنا يا أمّي؟ تعرفين بالطبع أنني ملكة جمال الكون ذات المؤخرة اللاتينية، وقد ورثتُ جمالي من أبي موظف الشهر العقاري البسيط الفنزويلي، ومنكِ لأنك في الأساس من أوكرانيا، ومن جدتي «سِت أبوها» رحمها الله والتي انحدرت من أصول رومانية..

أنا خريجة التجارة تلك التي تقضي الصيف كله تحت ظلال نخيل جزر هاواي، مرتديةً البكيني حاملةً أطواق زهور النسرين حول عنقي، فاكهةُ النعيم الاستوائية تحت قدميّ، وجسدي الباكي شهوةً يتكسّر تحت أنامل الفلبينية في جلسات الـ«spa» والتدليك بالزيوت العطرية.. تعرفينني يا أمي، أنا الملولة تلك.. بوجهها القمحي بهالاته السوداء وندباته وحُفره، والذي ليس من العدل أن يرافقها طوال عمرها بالملامح نفسها، فتقوم بتغييره كل عامين أو ثلاثة، فيشبه وجنتي «نانسي» مرة، وشفتي «هيفاء» مرة، أنا صاحبة ذلك الصدر المعطّل حتى التاسعة والثلاثين فأحشو خواءه بالسيليكون- بديلًا للبن - لأكوّره تارةً وأجعله في شكل دمعة العين تارة.. كل ذلك يؤدي بي في النهاية إلى ابتسامة هوليوود الشهيرة الآسرة في صورتي صاحبة الألف «أعجبني» على الفيسبوك والتي توقع كُل هؤلاء الرجال في حبي!

«وأنا قبلتُ زواجَك..»، نعم أيها المدلّس، تزوجْت البكر التي شارفت على الأربعين.. الرشيد التي فقدَت رشدها، عروسٌ أنا، أبدو ممتلئة وبلهاء في ثوبي الأبيض الـfirst use عاري الكمين، دائمة الانزلاق مثله إلى أسفل فوق السترة الملتصقة بصدري، فأجذبه إلى أعلى وأجذب روحي معه..

صديقتي تشدُّ الحِبال المتشابكة بإحكامٍ حول خصري: «اشفطي كِرشك»، فنغيب معًا في ضحكةٍ طويلة تفقدنا السيطرة على البول، ألتقط

أنفاسي بصعوبة ثم أسألها إذا ما كان ثوبي يذكرها بثوب بطلة «ذهب مع الريح»، فتردّ بأنني أذكرها بمربيتها الزنجية فحسب: «نفس الشلاضيم!»، نقهقه حتى الدموع ونحن نسترجع غطاء رأسها وصديقتي تلملم طرحتي البيضاء لأعلى كي أبدو مثل المربية، تضعف قبضتها في أثناء ربط حبال الثوب فيُسمع صوت انفلاتها مع تمدد لحمي أكثر داخله من كثرة الضحك..

تذكرين يا أمي حين امتدت الأيدي إلى أكوامِ اللحم فوق صواني الكبسة الملونة بالكُركم: عقيقة المولود ابن قريبتنا البريء من كل ذنب.. البُسُط الخضر مفترَشة في ساحة الاستقبال الكبيرة المكتظة بالرجال، بينما تلتفُّ النساء في حجرة بالداخل مشرعةَ الباب حول كميات أقل من الطعام، يطغى صليلُ الملاعق في الأواني على كل دردشة تبدو غير جادة في أثناء الأكل، ثم ذلك الوجه السمِح الأسمر الهادئ ينظر إليّ سريعًا باقتضاب، ثم يحوّل البصر في التفاتةٍ أبطأ من زمن النظرة، علامة الصلاة النائمة على جَبينه، لحيته المشذّبة والتي تمنيتُ لو كنتُ خصلةً واحدةً فيها، إمامٌ يرتل القرآن ترتيلًا في صلاة الجماعة تحت ضغوط زوج قريبتي: «عاوزينك تصلّي بينا»، الغُنة في صوته تفتِك بأذني، «ربي إني لما أنزلت إلى من خير فقير» صدّقت حدْسي وشعرتُ بأنه يطلب يدي على الملأ..

ظفرتُ بنظرة أخرى منه على مقربةٍ من باب المبرد المفتوح وقد انحنى جذعي وأنا أحشُر بعض فضلات الطعام بداخله بين تلال اللحم النَّيء وشحوم «اللية» المصفوفة فوق الأرفف، كانت نظرة لائمة، وكنتُ قد بدأت أقتنع أنني صرتُ في كنفِه وله عليّ حق الغيرة واللوم، لا، بل التوبيخ إن أراد ذلك وأُشهد الحاضرين جميعًا.. وكنتُ أحدثه في نفسي: «حقك عليّ، أصلي لسه مش متعودة».

كلما تذكرت الوداعة التي ظهرت على وجهِه وكيف تحولَت إلى الوضاعة في غضون أيام من زواجنا الميمون! شعرتُ وكأني جثة مغطاة بجريدة صفراء أشبعها شاب «مختل عقليًّا» طعنًا..

في اليوم التالي كان قد تلقّى موافقتي على الزواج به، وفي ستة أيام كان قد خلق الله فيها الكون من قبل، كنا قد اتفقنا على كل شيء، أقصد أمْلَي عليّ كل شيء، عندما قلتُ له: «عاوزة أعمل فرح»، احتواني بنظرة باسمة جريئة: «فرحك في حضني بعيد عن الناس»، تُهت في أباطيل الرجل البهيّة وعشتُ على ذلك الوعد: «أول ليلة في حضنه بعيدًا عن الناس»!

تفرُك جسدي الظمآن امرأة تشبه الكومبارس «سعدية الدكر» بالملح الخشن في حمام الثلاثاء حتى نزفَت مسامي، تُدلي السيدة طواعيةً بنصائح صريحة عن ممارسة الجنس فيحمرّ وجهي الذي تتغير قسماته كل بضع ثوانٍ

مع الألم المبرح في أثناء إزالة شعر العانة، فألعن الجنس ونعيمه الذي أطمح فيه، مِثل مَن جاءها المخاض فلعنَت ذريتها وجعًا..

استقبلتُ حَيضي الأخير قبل زواجي استقبالَ ضيفٍ ثقيل في آخر ليلةٍ قبل أن يرحل إلى الأبد، بحفاوة ودون تكدير أو تذكير «بالذي مضى» من ليالٍ بكى فيها رحمي دمًا على طفلٍ لم أنجبه بعد! وكنتُ قد هيأتُ روحي لتسعد أخيرًا بعد طول انتظار يا أمي، وقلت: هي دعواتك ورضا أبي المتوفَّى قبل أن يُفارِقَنا..

أغلقَ عليّ الباب وأغلقتُ عليه قلبي، اقترب بشبق المحروم، عيناه الزاحفتان من أسفل إلى أعلى كانتا تُدخلاني في عِداد الجميلات! لا بل في عداد الإناث.. أنا! يشتهيني أحدهم؟ كلمات ابنة صديقة أمي المهندسة المتزوجة والتي أغبطها على جمالها أكثر من زواجها، تطاردني في ذلك الوقت تحديدًا: «هناك طوال الوقت من هن أجمل بكثير وكذلك الأقل جمالًا، ولم يكن جمال إحداهن في أي يومٍ من الأيام مصلًا ضد عدم زواجها، أو ضمانةً حقيقية لحياة سعيدة ستكتمل بعنصر ذكوري، بينما يرِد علينا كل يوم جميلات يغبطن القبيحات على زيجاتٍ مناسبة جدًّا..»، ولكني أصرُّ الليلة أنني حقًّا جميلة، لن أحلم – كما اعتدت في اليقظة – بعشر رجال يلتهمون جسدي العاري، تكفي عينا حبيبي فقط لتراني الأجمل بين كل نساء العالم..

بالنسبة لامرأة لم تتعرف من قبل على خريطة جسدها عن طريق أنامل رجل، لم تجرّب ملمس الشعر الكثيف النابت من الجلد ينثني ثم يرتفع ثم ينهزم فوق قشرتها، ولا المعركة اللزجة التي تدور بين العَرَق المتجدّد والراكد في المسام، تشعر بأن كل همس المتحرشين القديم مجددًا في أذنها طفلةً تردّ على الهاتف ببراءة، ربما جربَت في السابق الشعور بالوخز من الخلف بشيء مطاطي في الزحام عشرات المرات، لم تمهل روحها حتى تفهم ماهيته، ما كان مسموحًا لها هو أن ترفضه بصمت، دون جلبة، ودون لفت الأنظار، كان الأجدر أن تنظر فيما ترتدي، وتشعر بالخجل وتستغفر لذنبها الذي لا تفهمه..

في أحضان الزوج بدأَت تعي لماذا أصرّ والدها على ختانها، ولماذا أمعنت والدتها في تخويفها من مكان عفتها، ترهيبها من لمسه، من الإفراط في دفع المياه إلى داخله، من ركوب العجل أو ممارسة الرياضة، من الدم إذا نزل في غير وقته! من اللون الأحمر ذاته، ومن إغراءاته.. بدأت تدرك كذلك لماذا فَرَضَ عليها زوجُها النقاب فرضًا، فسّرت كل ذلك أنه الاجتهاد الذي يسبق نتيجة الامتحان المشرّفة: «إنها بكر»!

لا داعي الآن وهو على مقربة من حديقتي لأجتر الترهات القديمة النابعة من إحساسي بالكبت: ماذا يعني أن أكون بكرًا؟ ما البكارة؟ ما دلالتها؟ هل كان آدم عليه السلام بحاجة إلى بكارة حواء ليوقن من طهارتها؟

«حواء تعني غشاء».. كلمة بليغة مختصرة والدليل أن حواء ذات الغشاء على أعتاب السعادة الأبدية الآن، أشعر بملاطفة وبمداعبة، عذبٌ جدًّا هذا الإحساس، لماذا تركتك زوجتك الحمقاء إذن؟ هل صار هذا المَلَك مِلكًا لي وحدي؟

تحمل أنفاسه المتلاحقة إصرارًا ما، ثم تتباطأ بيأس، ثقل وزنه فوقي سلبَني المتعة التي كنت أشعر بها ولم يحدث الشيء الأهم بعد، صار الانتظار مملًّا فجأة، بل تحوّل إلى إلحاح كي ينتهي الأمر سريعًا قبل أن أفقد أنفاسي، نكهة يأسه تشتد، أستطيع أن أشتمها مختلطةً بعطر العود الذي ضوّع نفسه به، ثم استحال العطر تدريجيًّا إلى إخفاق..

في مثل تلك المواقف أظن أن ذكاء المرأة وحده ينهي الموقف بسلام، «ماتضايقش نفسك، أنت بقالك يومين مانمتش، أنت أحسن راجل في الدنيا»، ضمّة كبيرة ونومة حتى الصباح على صدرها قد تخفف من وطأة صدمة الليلة الأولى.. لكن الأمر جدير بالتأمل، لماذا يخفق كل هؤلاء الرجال في الليلة الأولى؟ وهل تعقب الليلة الأولى ليالٍ أُخرى؟ أمر مثير للقلق..

جاءت مكالمتك الصباحية مباغتة يا أمي، لم أكن أعرف أن ردي عليكِ بـ«لا شيء» جعلك تبحثين عن زوجته السابقة وتعرفين ما لم أكن أعرفه، في ليلتنا الثانية تكرر الأمر بتفاصيله، لكن إخفاقه في تلك المرة قد استحال إلى

شيء آخر، إلى نية أكيدة لفض بكارتي.. بأي صورة كانت.. فقأ الحاجز بين «آنسة ومدام» بسبابته الممتلئة، طفل عابث أحدث ثقبًا في فقاعة صابون، طعنة.. ظُفر انغرس في لحمي، ابتسامة ذئب أوقع ضحيته من دون جهد في الشِّباك ودمي المسفوح على إصبعيه يتصدر المشهد..

الآن حَصحص الحق، لم يكن الأمر برمّته سوى «الثقب الأسود» تعريفًا في كتاب الفيزياء القديم: منطقة صغيرة جدًّا في الفضاء ذات مجال جاذبية قوي بحيث لا تسمح بمرور الضوء!

«تزوّج من ثلاث نساء من قبل؟ عاجز جنسيًّا؟» أشكرك يا أمي على المعلومة..عرفتُ أن زوجي لم تستعصِ بكارة امرأة عليه.. كان يصيح بالآية الكريمة عند رجليّ: «هو عليّ هيّن»..عليكِ الآن أن تتضرعي إلى الله لتكفي مدخراتي مع إرثي الصغير من أبي لأحصل اصطناعيًّا على طفل.. صلِّي من أجل حصولي منه على نطفةٍ صالحة لخلق إنسان قبل فوات الأوان!

***

هاتفي يدقُّ للمرة العاشرة في الساعة ذاتها، أمي تؤكد موعدنا اليوم مع ابنة صديقتها المتزوجة حديثًا، لا لكي نبارك زواجها بل لنتضافر معًا كي نقنعها بالانفصال عن زوجها العاجز، والذي تتشبث به رغم توسلات الجميع، وبعد فشل مساعي الأم لدى كل الدجالين لفك السحر الأسود

المتسبب في ربطه! في كل اتصالٍ تكرر على مسامعي تصريحات الأم الحزينة والتي تشعر بانفلات ابنتها من قبضتها الحانية لتحميها من أي مكروه..

أنقذتني المكالمة الأخيرة من حديث أكثر سخافة في العمل قبل مواعيد الانصراف بعشر دقائق، فانطلقتُ إلى الممر الطويل بين غرف الموظفين وبدأتُ أتنفَّس هواءً أقل تشبعًا بكلماتهم الهالوكية، هنا يصير للحظةِ سماع صوت كعب حذائي عندما يرن بوضوح فوق الرخام، صدى يُفرج أساريري. أبصرتُ شمس اليوم عزيزة الظهور منذ يومين، صوتٌ مألوف داهمني من الخلف:«البشمهندسة هدى؟ كيف حالك؟ قصصتِ شعرك!»، التفتُّ واسمُها يوشك أن يقع من طرفِ لساني، كانت هي.. رسول الحب بيني وبينه لسنوات.. احتضنتُها وأنا أتفقّد رائحته في ملابسها، ومددتُ راحتي نحوها وكأنني أنتظر أن تدس فيها خطابه الأخير..

أشتمُّ الآن رائحة خطابي الأول، كان على ورقة معطرة من دفتر رسائل مملوء بالأوراق المعدّة لتبادل كلمات الحب، خلفيتها من زهور عباد الشمس الصفراء وأخرى تحمل رائحة فواكه البرتقال والفراولة والخوخ.. الشريط اللاصق المغلِّف للدفتر كان ذاته مغلفًا بأتربة تُخفي معالمَه حتى ذلك «الكود» الصغير الذي يحمل السعر كان مطموسًا من أثر الغبار العالق سنواتٍ أسفل الرف المهمَل في المكتبة. أذكر أنني خبّأت الدفتر تحت الجاكت الواسع كيلا

يراه أحدٌ في يدي ولا أضطر إلى طيّه في الحقيبة الصغيرة فينثني ويفقد شكله الانسيابي، ظللت أستهلك الورق كتابةً لأنني تكراريًّا أشطب أول سطر بعد العنوان الصريح: «حبيبي.....»، أوشك ورق عباد الشمس على الانتهاء، تبقّت منه ورقة واحدة فقط اجتهدت كي أكتب دون أدنى خطأ ممكن قد يشوه الرسالة، وبعد انتهائي منها راضيةً مرضية، ضرب بَنْصَري ذيلَ آخر حرف في اسمي المكتوب في أسفل الورقة: «المخلصة هدى»، فضحكت حتى الدموع وقلت في نفسي لا يريد لي القدر أن أصير له مثل العَبّاد للشمس..

سألتُ عنه أولًا -كعادتي- واستنكرَت سؤالي ساخرةً لتقديمي إياه عليها دائمًا.. وعندما سقطت تلك الدمعة من دون إذني قالت: «أما زلتِ في ضلالك القديم؟»، ابتسمتُ بمرارة وأنا أتطلع إلى أخباره في عينيها، قالت: «بخير.. تاليا الآن عمرها ٥ سنوات»، تاليا..جميلٌ اسمها، تكبر ابني «علي» بعامين ثم فارقتني «مرسال الهوى» وأنا أتصور تاليا وعلي يمرحان معًا. في عالمٍ أرحب وأقلّ تعقيدًا كان من الممكن أن نظفر بلهوهما معًا – على الأقل – دون أن نُتهم بالخيانة، بل كان في مقدرونا أن نتناسى بالتدريج ما كان بيننا عندما ننشغل بمتابعة قصتهما الجديدة..

الشمس تقف لي على رأس الطريق، تبدو اليوم بسيطة مثل القرص الأصفر، نجتهد أطفالًا صغارًا في ضبط دائرته فوق دفتر الرسم الأبيض

المستطيل.. أما السماء.. تلك البهيّة الرحيمة القاسية يزين قبتها وجهُهُ الآن.. وجه ذلك الرجل الميّت يبزغ ممتدًا فوق استدارتها مشدودًا إلى أطرافها كالنول.. مثل وجه العذراء يملأ أحلام طفولتي.. رأيته كذلك، مثلها، مبشرًا بتجلٍّ جديد له في قلبي.. اليوم، واليوم فقط ظهر حانيًا جدًّا.. حانيًا بحجم صدر أمي يقول لي: «ما زلتُ أحبك، ما زلتُ على عهدك، أهمس للهواء مثل المراهقين في منتصف الليل وأبكي، أبكيكِ..».

هو ميت، ورؤيا الموتى حق!

في الطريق إلى أقرب تاكسي، أمرُّ بنافذة تلك المرأة النظيفة حيثُ تتصاعد منها رائحة ملمّع الزجاج التي أحبها، تُغزَل في خلاياي مع أزهار شجيرات الرياحين أمام منزلها، ثم أمرُّ بالبيت المجاور فكأني أرى بأنفي شرائح البوفتيك التي أفرطت الطاهية في تركها تتلظى في جحيم الزيت الممتلئ بالشوائب السوداء، كتلك الشوائب العالقة بروحي..

ظهوره بعثٌ من الموت؟ أم حلاوة روح قبل أن يموت – أخيرًا – كل شيء للأبد؟ حلاوة روحه التي لم تصفُ لي قط؟ أم وجعي وأنا ألومه: «ياللي دموعك لحبايبك قولي ابتسامتك تبقى لمين؟»، ليتها فقط طقوس دفنٍ أخيرة.. ليتهم يحرقون جثته ولا يعطونني رماده..

أتراه ينسى؟ ينساني؟

هل حضن امرأته في جوف الليل ينسيه خصلة شعري التي لم يشتمها قط؟ لا أريد أن أصير امرأة أخرى، أحب نفسي بسقطاتي وجنوني، نقيصة بي.. نعم.. تمنيت ألا يحبها وأن يأكله الفقد وأن يعاني ويتألم.. ثم ندمتُ، ندمتُ كندم الآلهة القديمة التي خَلَقت ثم كفرت بها المخلوقات في أساطير الأولين، ماذا فعلت أيدينا؟ هل خلقناهم من عدم ثم بنينا لهم أصنامًا نعبدها في قلوبنا تقديسًا لحبهم الزائف؟

لم أطلب من سائق التاكسي أن يسرع أو يبطئ.. فتلك رفاهية لا نراها إلا في السينما.. لم أوجهه لطريق معين، طار بي على النحو الذي أريده تمامًا، شعرت به لا يبذل جهدًا كبيرًا في إحباط أكثر من خمس احتمالیات مؤكدة للتصادم، يقود بذراع واحدة ثابتة مبرزًا كتفه اليمنى بزهو، وبالأخرى يمسك بالمحمول متحدثًا طوال الوقت، تلك المغامرة التي تقع على كونشرتو راخمانينوف الثاني للبيانو في أذني، تناسب أحد سباقات الرالي الشهيرة التي تألق فيها مايكل شومخر، قلبي يخفق بشدة مع نغمات الكونشرتو المتصاعدة عند طلوع الكوبري، أوشكُ أن أطير لأنني تجاوزت المكان والزمان، ذهبتُ إلى هناك حيثُ التقينا للمرة الأولى على مائدة طعام قروية.. أنت تلتهم قطعة الخبز المغمورة في الجبن الأبيض بعد أن أدرت إصبعيك في الصحن والتقطتها ببطء وخجل، رفعتَها إلى ثغرك، نظرت إلى وجهي في ذات اللحظة

فابتسمت وأنا أغض طرفي عن اقتحامك، لاحظتُ حدود شفتيك مطبقتين على الطعام وأنا أهبط ببصري إلى أسفل: مخلوقان صغيران مكتنزان بالشوق يضمان طعامًا أبيض، قلبي يدق عنيفًا في صدري، يُراودني حلم المرة الأولى لألثم المخلوقين الصغيرين معًا..

محاولات المحيطين لعرقلة تقدم السائق المحترف باءت كلها بالفشل، سرعته لم تمنح أحدًا فرصة سَبِّه، تخيلته قطارًا يدهس ملايين السنوات السابقة والقادمة: ملايين السلاحف المختبئة تحت حراشفها القرنية يعلو صوت تكسيرها تحت العجلات على صوت الموسيقا وموتور السيارة المنهك..

يتوقف السائق إجباريًّا، المتآمرون على اللون الأحمر جعلوه مشنوقًا في إشارة مرور أطول من كل التأفف المرسوم على وجوه السائقين، جلبة وزحام رجال الشرطة حول حادث تفجيري جديد، وتلك الدماء التي رأيتها منذ ساعات على شاشة التلفاز وكانت تبدو كصبغة رديئة مسكوبة على الأسفلت، بدت لي الآن حقيقية ونديّة، بدا لي الموت مألوفًا أيضًا، أشرد في كل الموتى الذين سقطوا من حياتي أحياءً، في تلك الحرب الدموية التي يشعلون، في كلمة الإيمان الراسخة في صدور أتباع جميع الأرباب والتي لا تستطيع أن تُخضع قلبًا واحدًا لا يريد أن يؤمن بأي شيء، وفي الشارع الذي يبدو هادئًا وديعًا رغم أسنانه الصلبة اللامعة تحت عجلات الترام في المنتصف، وبائع

الكتب الذي يتكسّب من بيع الجرائد، وتلك الأشجار التي أصابها صممٌ أزليّ، وقلوبنا البكماء إلا من دقٍّ لا يتوقف عندما نحب أن نخرسه..

كيف لحبٍّ أن يبقى في زمنٍ كهذا؟

هل يهمُّ حقًّا مَن مِنا خَذَلَ الآخر؟

ما فائدة تفاصيل الفِراق المملة ما دمنا قد فَقَدْنا الطريق؟

أصعدُ إلى شقتي وحارس العقار وبعض الجيران ينظرون إليّ باحترامهم البالغ المعتاد.. «خاتم» الزواج الذي أرتديه يخلع عليّ صفة العفاف الذي لا أدعيه ولكني لا أستطيع أن أنكره، «الخاتم» الذي بإمكانه أن يضمن لكِ «خاتمة» تحفظ لك قدرك ولا تعبث بأسرارك، كونك بعيدة -كل البعد- عن شبهات السوء! كم مرة تخيلتُه في أحضاني بدلًا من زوجي؟ وكم مرة نمت وأنا أضع كفي فوق فمي خشيةَ النطق باسمه رغمًا عني؟ لا أريد أن أتذكّر، ولكن من الظلم أن تظل ذكراه بيضاء هكذا وما يشوبها من سواد يغادرها ليستقر في الأعماق، يومًا بعد يوم صارت أعماقي مُتْخمة..

في المصعد، تشاركني جارتي متفجرة الأنوثة الحيّز الخانق، بصري يرمق رغمًا عني صدرها البارز في حمالته الظاهرة عبر سترتها الضيقة، شعرتُ بالغضب والغيرة وتحسستُ صدري وكأني أتيقن من وجوده، قفزت أمامي صورة حادة لي وأنا عارية خائفة يُدخلونني تحت براثن جهازٍ مركّب يشعّ

ضوءًا قويًّا وقد سُلّط عليَّ وأنا واقفة، أستمع إلى همسٍ مختلط: «قصّت شعرَها!»، شاهدت ملايين الذرات المضيئة تتناثر مني إلى أعلى في خطوط مستقيمة بسرعة فائقة، وزوجي في الغرفة ذاتها يضاجع جارتي ناهلًا من نهديها البارزين، وحبيبي القديم يضاجع زوجته في الجهة المقابلة ممزّقًا خطاباتي بيده المختبئة وراء جسدها، وأمي أمامي تحتضن «علي» وتقول: «بالشفا يا هدى.. بالشفا».. كانت تدق على هاتفي للمرة الحادية عشرة لتذكرني بموعد الليلة ولم أكن قد أخبرتها بعد بأنني ذاهبة لتلقي أول جلسة علاج إشعاعي اليوم!

***

لا يسلَم المرء أبدًا في هذا العقار، تلك المرأة ترمقني وكأنني زوجة أبيها، ولكن في عينيها ما يجعلني أُشفق عليها، لذلك أحاول جاهدةً ألا ألقي بالًا لكل تلك التفاهات، العمر يمضي بالمرء.. لا بل يركض.. ما جدوى الحزن إذًا؟ ثم إنها الغيرة فحسب.. ممَ تغارين أيتها الزوجة السعيدة ولديكِ زوج وابن؟ وأنا المطلقة الوحيدة، تستكثرين عليها جمالها تصنع به ما تشاء؟

من المضحك أنني لم أكن أرى نفسي جميلة عندما كنتُ طفلةً، وأظن أن دجاج جدتي هو السبب.. فيما قبل الثالثة عشرة كنتُ أتفقّد جسدي بفضولٍ واهتمام بالغَيْن، أقلقتني قِشرتي بشكلٍ كبير، حين لاحظتُ بثورًا تحت جلدتي مثل حَبٍّ أبيض منثور، يماثل في بياضه نتوءات جلد الدجاج بعد أن تنزع

جدتي عنه ريشه، وتغمره في الماء المغلي فوق البابّور، كان يقشعر بدني كله فتزداد الحبيباتُ تحت جلدي بروزًا يُسقمني..كنتُ فتاةً خجولًا، وأخشى كل شيء وأي شيء، كان من الطبيعي أن أخشى حزام أبي وتلك الحلية الحديدية المثبّتة به إذا هبطت فوق لحمي الغض، ولكن لماذا أخشى أبواق السيارات في الطريق إلى المدرسة؟ قطة جائعة حديثة الولادة تتمسّح في أقدام المارة؟ بداية مشاجرة تتصاعد تدريجيًّا بين والديَّ فتدفعني إلى سَدِّ أذني ثم أهرب إلى أبعد مكان في البيت؟

لم أمسك قط بِكرة «بُمب»، وأرتجف إذا انفجرت واحدة بقربي، ظللتُ أعاني حتى العاشرة من تبوّل لا إرادي، استحالَ إلى كابوس عانيتُه طويلًا..

كان جدي وحده يضحكني عندما يسقي الحمامات بفمه، وأقف على مقربةٍ منه أشاهده وهو يقبّلهن، في كلِّ مرة يناديني يطلب مني أن أفعل مثله، لا أستطيع، ولا أقترب قبل أن يتركهن، فيجلسني في حجره وتبدأ ملامسته لجسدي بصورةٍ تُرعبني، كانت أصابع جدي خشنةً وغليظة، وكنتُ أهرب قبل أن يصل بهما إلى أبعد من سرّتي وقبل أن تصعد جدتي إلى السطح الذي يعجّ بطيورها وبهوس الجد بملامستي..

كيف يقصُّ المرء على مسامع أحدهم مثل تلك القاذورات؟ في الحقيقة أنا أمقت الرجال جميعًا، ومع ذلك فقد فكّرت مليًّا في إجراء تلك العملية

لتحويل جنسي إلى رجل! اتخذتُ من ولعي بتقبيل ابنة عمتي في شفتيها خلسةً في مراهقتي سببًا وجيهًا لإجرائها، لكن ألجمني الخوف ذاته من حزام أبي قبل أن أتفوه بكلمة واحدة!

تزوجتُ رجلًا مبالغًا في كل شيء، في الوسامة والغنى والفحولة، لكنه كان أيضًا خائنًا بالفطرة، المشكلة أنني لم أكن أشعر بالغيرة كأنثى، بل كنتُ أشعر بالغيرة منه عليهن، عندما منعتُ نفسي عنه طلقني، وكان ذلك أفضل شيء فعله.. منذ ذلك الحين وقد صار التلذذ بنظراتهم الجائعة إليّ – أنا التي لا أطيق لهم صوتًا ولا رؤية – شغلي الشاغل، إيقاعهم في أسري ثم تعذيبهم بالمنع، إعطاؤهم الأمل ثم أخذه على حين غِرة، ذلك أقسى بكثير من يأسٍ طويل الأمد..

معرفتي بالرجال تفوق كل معرفةٍ في حياتي، تفوق قدرتي على حل أعقد العمليات الحسابية، على خدمةِ أبي القعيد من بعد رحيل والدتي وتحمّل طباعه السيئة، رأيتُ كيف يستميت الذكر أمام امرأة يعبدها حتى يحظى بها، كيف يفقد رجولته على مهلٍ أمام مديره، كيف يهرب من زوجته خلف شاشة يحظى فيها بشخصيةٍ أخرى لا تشبهه، قابلتُ ذلك المدمن اليائس من تحقيق أحلامه البسيطة وكذلك المتشبث بالأوهام والذي ينتظر معجزة هبوط جبريل من السماء!

إنني لم أقع في حبِّ رجل واحد في حياتي، وحده «هو» جعلني أشعر أن لي قلبًا نابضًا، قلب امرأة تعبت من لعب دور الرجل، ذلك العامل البسيط الذي طهّر سطح بيت جدتي من طيورها، الفارس المغوار الذي أعدم كل هذه الكائنات الحية: الشاهد الوحيد على خِسّة جَدي، محاربًا إنفلونزا الطيور، رأيته متوسلًا يطلب من الجمع الموكل بتنفيذ حكم الإعدام ترك طيوره، إلا أن فارسي لم يلتفت إليه، عندما رحل الجميع عن السطح، رقصتُ للمرة الأولى في حياتي على أنغام تلك الأغنية وأسوار السطح الحمراء الملطخة بدماء الطيور المذبوحة ما زالت رطبة وتطوّقني:

« الحِنّة يا حنة يا حنة ..يا قطر الندى»

وسأظلُّ أرقص في كل موضِع من أجل هذا الفارس ومن مثله، من أجلهم فقط تحلو طراوة النساء ويحبّب إليهن ضعفهن واحتياجهن، سأرقص على أمل أن يجدن فوارسهن في الغرام.. أما أنا فقد وجدتُ رَجُلي وسأصل إليه حتمًا.. من المؤكد أنني سأجده في الميادين العامرة بالبشر والهتافات، بوجهه الأسمر وشفتيه المصبوغتين بسواد آثار التدخين، وذراعيه المفتولتين وعينيه الجامدتين، بضحكةٍ أفلتَها عندما نقرَه الديك الرومي المنتفخ بعرفه الأحمر صاحب «الريش على مفيش»..

(فولي بيرچير)

كان من هؤلاء الذين تستطيع أن تختصر حياتهم في كلمةٍ واحدة، أو إذا تجمّع أحباؤهم أو معارفهم في ليلةٍ قمراء، على مقهى حول الشيشة يستعيدون ذكرياتهم البعيدة، يستحضرونهم من بين الشخوص والأمكنة والأزمنة فيقولون: كان فلان رجلًا تقيًّا، أما علان فكان بخيلًا جدًّا، وترتان ذلك النسوانجي«أبو ذيل نجس»! عندما يأتي ذكره هو، وأحدهم يجلس فوق نفس الكرسي الذي كان يفضّله: كرسي (الفِراشة) الخشبي الذي لا يفصله عن الرصيف سوى إصبعين تقريبًا ولم يغيره قط، فكانوا يقولون: كان «شوقي» رجلًا سعيدًا، ويذيّلون قولهم البليغ بتنهيدة طويلة، فكأن كل منهم يتحسّر على حاله ولا يزال يحسد الرجل الذي نعتوه بالسعيد حتى وهو في قبره..

كان في نظرهم محظوظًا حتى في الموت لأنه توفي قبل ابن عمه والذي كان يترقب الجميع رحيله الوشيك، جاء أمر الله ففارق شوقي قبله بدون مقدمات وبذلك حملوا نعشه فوق أعناقهم إلى مقابر العائلة بالمجاورين قائلين:

-المجاورين أهه يا شوقي..حاجة ملوكي..

مات ابن عمه بعده بأيام فحُرّمت عليه مقبرة العائلة ودُفِن في مقابر غريبة، فوقتما انفتحت مقبرة ليرقد فيها أحدهم ستنغلق ولن تُفتح ثانيةً قبل أربعة أشهر على الأقل! أصرّ أحد أصدقاء شوقي على النزول معه إلى أسفل حيث الظلمة المقيمة مهما يعبر الضوء السخي إلى الداخل، حلّوا وثاق رأسه وقدميه، وبموسَى شرّط صديقه الكفن قائلًا لابنه الشاب الذي بدا مستنكرًا:

-لازم، عشان الملايكة هيقعدوه..

أسرّ في نفسه السبب الحقيقي، كان يخشى عليه من أن يسرق التربي كفنه، حادث يتكرر باستمرار في المجاورين وغيرها، فيكون إتلاف الكفن هو الضمان لعدم سرقته، تخيّل صديق شوقي إياه عاريًا في قبره ثم قالها لنفسه بصوتٍ خفيض:

-شوقي مايستاهلش كده ..

لكنه لم يستطع أن يمحو الصورة من باله، وبدأ يرى شوقي واقفًا غير مبالٍ لعريه، يفتل شاربه ويبتسم كعادته، شرع في رقصة مفاجئة، يهز جذعه يمينًا ويسارًا بخفّة مثل «شكوكو» في رقصةٍ شعبية، رغم بطنه المنتفخ والذي يمتد أمامه ويحجب رؤيته لنصفه السفلي! تضايق من تلك الصورة الغريبة وأخذ ضميره يؤنبه:

-أستغفر الله العظيم!

مضى في طريقه خارج المقبرة، ووجه شوقي لا يفارقه، يقفز كل برهة أمامه فاتلًا شاربه بفخرٍ وجديّة ثم يحرك حاجبيه ضاحكًا، فيخبّئ الصديق وجهه قبل أن يلاحظ أحدهم ضحكته المنفلتة وسط المقابر:

-يا شوقي عيب مايصحش!

عندما عاد إلي البيت كان الأمر قد تفاقم، لأن الصديق بدأ يسمع صوته أيضًا:

-فولي بيرچير! فولي بيرچير!

يقولها شوقي مداعبًا وهو يحرك حاجبيه..

حاول الصديق تجاوز الأمر ولم يقص على أحد ما يحدث له، حتى على زوجته التي لاحظت شروده وكلامه المتكرر مع نفسه، مع حلول اليوم الثالث كاد الرجل أن يُجنَّ من صخب الصور والأصوات التي تملأ رأسه، ربما يعاقبه شوقي على إتلاف الكفن؟ فقرر أن يسترضيه ليصرفه عنه، أصر على الذهاب مع ذويه مرة أخرى إلى المقابر لتأدية الطقس المعتاد المعروف بـ«شق القبر» فيُقرأ القرآن ويُنثر الماء البارد فوقه، ودّ صديق شوقي لو كان في استطاعته تبديل الكفن بآخر جديد، كان مستعدًّا لهذا لولا مخافة الناس، ولكنه اكتفى بالدعاء له وتفريق المال على روحه علّها ترتاح وتتركه يحيا بسلام! إلا أنه فور تركه للمقبرة رأى شوقي يغطُّ في نومٍ عميق ويعلو شخيره كما كان يحدث

وهم جالسون في المقهى، فيكاد يقع من الكرسي القريب من حافة الرصيف، فيجذبه أصدقاؤه سريعًا في اللحظة المناسبة قبل أن يسقط..فتح شوقي عينيه فجأة محركًا حاجبيه لصديقه:

-فولي بيرچير! فولي بيرچير!

-حرام عليك يا شوقي!

كان ذلك هو اللقب الذي يطلقه شوقي على طبق فول عم أحمد، حيث كان يسيل لعابه له بمجرد سماع صوت ماكينة طحن الفول، فتهبُّ رائحة عجينة الطعمية التي كان يدمنها، ويكتفي بشمها ولا يأكلها.. وقبل أن يقتطع لقمة من الرغيف الساخن يفتل شاربه استعدادًا لوجبة شهية ويقول:

-فول عم أحمد مش أي فول ..ده فولي بيرچير يعني الدلع كله وبالزيت الحار!

لم يزر شوقي باريس في أي يوم من الأيام ولم يركب الطائرة إلا عندما ذهب لأداء فريضة الحج، لقد رأى بالطبع نساء عاريات -غير زوجته- وشاهد راقصات وعوالم ولكنه حتى في أحلامه لم يكن ليرى راقصة واحدة من راقصات الكباريه الشهير فولي بيرچير!

قال الصديق لنفسه في جزع:

-يعني ده كلام؟ أفرّق فول على روحك يا شوقي؟

صلى الرجل الفجر في المسجد واتجه إلى دكان عم أحمد وطلب منه تجهيز عشرين رغيفًا من الفول، تكالب عليها صغارُ الحي المشرّدون، ثم ذهب ليجلس على المقهى كالمعتاد، كان كرسي شوقي كما هو شاغرًا، على حافة الرصيف معطيًا ظهره للشارع والبشر المتجولين ذهابًا وإيابًا، حاول أن يجترّ ملامح شوقي، أراد أن يراه فعلًا في تلك اللحظة، ولكنه لم يحضر، أمالَ الكرسي بقدمه إلى الوراء ببطء ثم التقطه في اللحظة المناسبة قبل أن يسقط للخلف، أخذ يكرر تلك الحركة مرارًا، فلربما عاد شوقي من نومه العميق مثل كل مرة، وصل الأصدقاء واحدًا تلو الآخر إلى الطاولة ذاتها، جلسوا في مقاعدهم صامتين، انتفض الصديق فجأة، كان شوقي يفتل شاربه من جديد ويحرّك حاجبيه ويضحك، نهض الرجل مسرعًا وجلس على الكرسي المهدد بالسقوط ومن خلفه الشارع والناس والذكريات..

(سقف السعادة)

انهمك الكون في رسم فجر يومٍ جديد بإتقانه الأزلي، غير مكترث ألبتّة بشيء مألوف

لدى البشر، يسمونه في كل لغات العالم «الملل»، خاصةً أنه فجرٌ في عام يحمل رقمًا يزيد على الأربعة بلايين ونصف منذ خُلق هذا الكوكب الأزرق..

يتجلى المشهد اليومي المتكرر من تحت خيمة الليل السوداء الهائلة بالنسبة لإنسان واحد على الأقل، كهذا الطفل النائم بين رجلي والده الذي يحتويه مثل الكنغر، في سيارةٍ للنقل الآدمي والحيواني وخلافه، تحمل كومة بشرية مظلمة تتنفس، لا يطفو منها سوى رأسه الصغير..

على التوازي، ريشة الرسام الرفيعة تعمل ببطء على محو اللون الأسود شيئًا فشيئًا، تؤثّر فيه بعض ألوان السماء التي تقترب من البنفسج فتمتصُّ روحه الدكناء، آخر مَلك ظل ماكثًا منذ ليلة أمس على الأرض من المؤكد أنه قد صعد الآن، جناحاه يضربان الهواء بقوة وتتناثر منهما لآلئ عجيبة تغزل

خيوطًا نورانية متناهية الرقة، كأنما تُولد من رحمٍ مختبئ، تسبق رأسَ المولود الشمسي القديم، يصنع الجناحان معًا رقم «ثمانية» بالإنجليزية، كأنها علامة «اللانهاية»..

فتح الطفل عينيه كرجلٍ يمارس الأرق طوال حياته، نائمًا مستيقظًا، لا فرق بينهما، بنظرةٍ جامدة تخلو من أي دهشة، يضرب الهواء البارد وجهه الأبيض المستدير، اعتدل في موضعه قليلًا بمقدار ما سُمح له به، ثم أخذ يراقب الشرائط الطويلة التي تخرج من جسد السيارة: الخطوط البيضاء المرسومة فوق الطريق الرمادي..

ما زال شبح القمر مرئيًّا في قبة السماء، تكسوه عتامة ضبابية تكشف عن طبيعة الطقس الجديد، وهنت كل النجمات أمام جبروت الضوء الذي لم يظهر بكامل سطوته بعد، وكأن الصمت الصاخب للحوادث الأكثر أهمية في الكون قد طغى على الطفل الصغير المحدق إلى الخطوط البيضاء ذاتها المرسومة فوق الطريق الرمادي..

حتى تلك اللحظة لا يبدو أن هناك شيئًا جديدًا ستحدثه البداية الحتمية اليومية، لولا تلك العقدة الصغيرة، العقدة المصنوعة من الخوص الرفيع، مربوطة – كمثيلاتها– في غطاءٍ خشن استخدمه سائق سيارة النقل كسقفٍ يعلو الكومة البشرية مثبّتًا في هيكلها، ساعد على هذا جانباها المرتفعان

كسياجٍ يغلق على من فيه إلا مِن الحائل الأمامي الذي يقلُّ ارتفاعه عن الآخرَيْن. عند أعلى حرف الألف الثاني من كلمة «السعادة» المطبوعة على الغطاء، حاك السائق تلك العقدة وأفلت أحد طرفي شريط الخوص فانتصف إحكامها، وصارت الأضعف بين قريناتها، عرّضها ذلك طيلة الطريق الذي سينتهي بالركاب عند وادي النطرون إلى ضغط الهواء المستمر، وقد يعرضها في أي لحظة إلى التمزق..

بعد شروق الشمس، تتعرّى السماء للأرض كليّةً، وتبرز مفاتنها للبشر، فتستحثُّ الحياة بعضهم كي يعانقوها بحبٍّ، أو كي يشتبك معها آخرون، بينما تجبر أغلبهم على الثبات أمام كل ما يحدث للمشاهدة فحسب، في الوقت نفسه كانت تصدر أصوات الاستغراق في النوم من كومة اللحم وقد شرعت ملامحها في الاتضاح خلف رأس الطفل المطرق في الخطوط البيضاء المرسومة فوق الطريق الرمادي..

في إحدى الزوايا، ظهرت ساق من البوص مرتكنةً بين رأسين في السيارة عندما نفذ شعاع من فراغٍ أحدثه انسحاب الغطاء إلى جهة اليمين، بفعل ريح قوية شرعت في الهبوب بشكلٍ تصاعدي. لا يهمُّ الآن بالطبع في أي مصرفٍ أو ضفة نهر ملوث كبرت تلك البوصة بصحبة مجموعات من القيصوب الأجوف، ما يهم هو أنها ليست «نايًا» وإنما «نارجيلة» تغوص دائرتها السفلى

– حيثُ تنتهي ساقها – بين جسدين، محدثةً أثرًا مؤلمًا في ظهر أحدهما، جعله يستيقظ غضبان ليدفعها ناحية جاره الغارق في نومه، فخبطَت يده المرفوعة الغطاء العلوي مما أحدث ضغطًا أكثر على عقدة الخوص الضعيفة.

أرّقت حركة الرجل نفرًا آخر نصف مستلقٍ إلى جواره، كان ملتذًّا في حلم ممتع يضاجع فيه الفتاة التي تستقل السيارة معهم وعلى بعد جسدين فقط منه، وقد نام رأسها على صدر زوجها، تنبّه الرجل الحالم إلى بروزٍ من تحت جلبابه، حاول أن يبحث بيده عن شيء يستره، كان أغلبهم نصف راقد فوق ما تبقى من القش المدفون بين قطع الأدوات الصحية المنقولة قبل عدة أيام في نفس السيارة، تخيّل الرجل الفتاة عاريةً تراوغه فوق القش ذاته في مكان أرحب مثلما رآها في الحلم، يسري خدرٌ لذيذ في جسده كلما داهمته عيدان القش مدفونةً بين طيات جسدها، عالقةً بشعرها الأشعث، مصفوفةً بعشوائية بين فقرات ظهرها. أخذ حفنةً منه بقوة كالقابض على جسدها ثم تلكّأ قليلًا وهو يغطي به عورته الناتئة. لم يستطع كبح نفسه فترك كل الأشياء التي كان لا بدَّ من حدوثها كي تحدث بشكلٍ أحادي، حاول كتمان أنفاسه المتلاحقة لكن الوقت قد فات لأن زوج فتاة أحلامه قد صحا على لهاثه وعينيه الزاحفتين إلى صدر زوجته النائمة، أما ابنه: الطفل الصغير في حجره، كان يتابع باهتمام الخطوط البيضاء المرسومة فوق الطريق الرمادي..

ما الذي يجب أن يحدث؟ دبَّ شجارٌ عنيف ودامٍ بين الذكرين، أوشك الزوج في أثنائه على قذف غريمه من السيارة المسرعة، اجتهد الاثنان في الوقوف لكن في كل مرّة كان الغطاء يردُّهما ويكلفه ذلك الكثير من إحكام العقدة الأضعف ثم من باقي العقدات الواحدة تلو الأخرى حتى أفلتَ الغطاءُ منها النصفَ تقريبًا وتدلّى الطرف الحُر فوق الرؤوس.. غضب السائق وأخذ يدقُّ فوق الحديد الفاصل بينه وبين الكومة مهددًا إياهم بالرمي خارج السيارة، كان على الطفل أن يغادر ضمة والده إلى ذراعي أمه والتي زُحزحت إلى موضعه خلف الحائل الأمامي المتأرجح، ثم عاود النظر في الخطوط البيضاء المرسومة فوق الطريق الرمادي..

استفزت الريح وهج الشمس، انبعجت جلودُ وجوه المسافرين على نفس الطريق وتقعّرت بفعل قوتها، عانت العيون من أقذائها،، يقف غرابٌ وحيد فوق أسلاك التليفون المعلقة كأوتار مرتخية، ينعق بصوتٍ يتلاشى تدريجيًّا مع مضي السيارات، تلوح صورة مَوجيّة لـ«تريلا» ضخمة بفعل البخار المتصاعد في الأفق، رفع الطفل رأسه عن الخطوط مبتسمًا للكائن الكبير المقبل والذي سمّاه عن فوره: «قطة»، اشتدت الرياح وهي تعانق وجه الطفل المبتسم الناظر إلى «التريلا» متشبثًا بالحائل الأمامي المتأرجح، ظهرت مقاومة عُقد الخوص المتبقية لجذب الريح العنيف، وأخذ الطرف الحر في الارتفاع،

يريد حَل قيوده في الأسفل، تمزقت العقد كلها، وتخلَّص السقف من الأسْر فطارَ مع اتجاه الرياح التي طاوعها شاكرًا لها، آذت الشمس عيون الركاب وشَعرَ النائمون منهم بالانزعاج والمستيقظون بالعري المفاجئ، انبسطَت كلمة «السعادة» المطبوعة فوق الغطاء من جديد، وانفرجت معها أسارير الطفل أكثر وهو يشاهد السقف الطائر.

زاحمت «التريلا» سيارات الطريق بسرعةٍ جنونية حتى جاء دور سيارة النقل، في تلك اللحظة قررت الريح أن تأخذ «سعادة» الغطاء إلى زجاج «التريلا» الأمامي والذي قد التصق به فحجب الرؤية عن السائق لثوانٍ، وقبل أن يمدَّ يده من نافذته مذعورًا لنزعه، كان هناك التصاقٌ آخر قد حدث.. ما يُرى الآن هو هبوط غطاء خشن مطبوع عليه كلمة «السعادة» فوق سيارة نقل آدمي، وبقع كبيرة حمراء تغطي الخطوط البيضاء المرسومة فوق الطريق الرمادي..

-جاية منين يا إحسان؟

-من القبّة..

-برضه؟ أنهي قبة؟ مشيتي كل ده إزاي يا إحسان؟

-ماتسأليش أحسن لك يا زوبة.

-بسم الله الرحمن الرحيم! خديها يا نجاة خديها.

كم أحبُّ أن أرى لمعةَ الخوف في عينيها هكذا، ولكن في الحقيقة أحبُّ أكثر أن آتي لرؤيتها، ذلك محبب إلى نفسي مثل صلاة في جوف الليل! إنهم يوصُونَنِي بزيارتِها، فكلما أقدمتُ على المسير حملتني قدماي إلى بيتها، لا.. بل حملوني هم إليها، منذ زمنٍ طويل وأنا آتي إلى هنا، منذ كانت تلك الأرض خضراء، قبل أن تتكدّس كل تلك البنايات وتتراص مثل علب الكبريت فوق بعضها البعض، لَكَم تغيّرت الشوارع والحارات والناس أيضًا..ولكن كان كل ذلك مكتوبًا وقرأتُهُ من قبل، بين العيون وفوق الكفوف، وفي فناجين القهوة..العين التي تقرأ في وجوههم التأفّف عند رؤيتي والهروب من استضافتي، يمكنها أن تقرأ أي شيء آخر.

أنا امرأة لا تقوى على الجلوس طويلًا في بيتها، هناك دومًا ما يقضُّ مضجعي ومَن مثلي كُتب عليهم المسير، أظلُّ أمشي وأمشي..لا أحصي المحطّات، ولا أركب الأوتوبيس ولا أضلّ أبدًا، المهم أنني دومًا أصل.. حتى لو لم أكن أدري إلى أين أذهب!

يعتقد الجميع أنني مجذوبة، حتى بنات زوبة، وحفيدها الأصغر الذي ناداني ذات مرة: يا مجنونة فانفجر جميعهم في الضحك، ضحكتُ أنا أيضًا، الحمد لله أنهم لا يدركون حقيقتي، ذلك أفضل جدًّا..

لا يباهي العبد بكرامةٍ وهبها له خالقه، ولا يفعل هذا إلا في مرضاتِه، سادتي يعلمون من أمري، وهذا حسبي أني أراهم رأْيَ العين، وأنهم يهمسون لي في اليقظة والنوم: قومي يا إحسان! ما أعذب مناداتهم! ما أجمل تلك الأصوات التي تأتي من هناك، من بعيد، لا من سماوات ولا أرضين، وليست لذكور ولا لإناث، من ملكوت آخر، ولكن يا ويلي إذا خالفتُ، أو أفصحتُ، أُعاقَب عقابًا شديدًا لا يقدر عليه إنسان!

-شيء لله يا أهل الخطوة.

-إزيك يا إسماعيل؟

-«إيه زيّك»إنتي يا ست إحسان؟

-شوفي الراجل! أربعين سنة على ذمّتك عمرك ما عتقت ست ولا حتى إحسان!

-تعالى يا ولد يا ياسين غنّي مع جدّو:

چـيرمان..چـيرمان..

هُمّ فين؟هم فين؟

مفيش جدعان..

أبدًا ..أبدًا!

هذا هو الرجل الأكثر حظًّا في الدنيا، لو يدري إسماعيل كم أدفع عن «زوبة» عشاقًا يريدونها! مَرَدة يا إسماعيل لو مَسّك واحدٌ منهم سوف تقضي بقية حياتك مثل الكلب الأجرب!

-السبرتاية يا نجاة..وريني رِجْلك يا إحسان.

-يا بِت يا زوبة، بقالي عشرين سنة باجيلك، محدش غبّر عتبتك قدّي، بنام على فرشتك زي ما أكون في حضن أمي، أغيب وأغيب ويشيلوني ليكي، النومة والهِدمة والأكلة منك انتي وبس، دوايا عندك وشفايا منك، لا يوم تعبت من سير ولا حملت هَم سكة، لا حر ولا مطر، لكن معذورة أصلك ماتعرفيش!

يهون الطريق إليكِ يا حبيبتي، يا زوبة يا أم البنات، إحسان لا تكفّ عن السير ولا النظر إلى الشرفات! يومها لمحتُ شرفتك الصغيرة، جاراتك

يعلّقن الثوم والبصل ويكوّمن كراكيب البيت كلها في البلكونات، لا تقدر أيٌّ منهن على التفريط ولو في قصاصة قماش، تلال من الذكرى تحت شحومهن، وحدك كنتِ تجلسين فيها، خلفك ستائر خفيفة مشغولة بخيط السنارة الذهبي، بصحبة حوضٍ صغير به شتلات النعناع والشاي الأخضر والزنجبيل، تداعبين بأناملك ريحان الحوض الآخر فسمعتُ مناديًا: «والحَب ذو العصف والريحان»، ثم آخر في نفس طلاوة الصوت الأول عصف بكياني كله: والحُب ذو العصف والريحان..أحببتُك يا زوبة وتحسستُ كتفيك من الخلف وأنا أحتضنك لأول مرة، اقشعرَّ بدني مما تحملين فوقهما، ومن جلدهما السميك الأبيض المغطى بـ«حمو النيل» صيفًا وشتاءً!

-تعبانة يا إحسان!

-أومال أنا جيت ليه يا زوبة؟ عرفت يا ست الناس!

-طب شوري عليا..

-دلوقت نشوف في فنجانك..

في الفنجان تتجلي الأسرار كلها، تنكشف الحُجُب ببرهان القهوة، الدنيا بكل ما فيها تصير بين أصابعي، لزوبة فقط أقرأ، لها وحدها يسمحون لي بذلك فلا يعاقِبون أو يؤنّبون، لماذا هي ولماذا أنا؟ أنا لا أحب الأسئلة أبدًا.. أبدًا..

-چيرمان.. چيرمان

همّ فين؟ هم فين؟

مفيش جدعان

أبدًا..أبدًا..

-هاتي كفّك يا زوبة.

-ياه يا إحسان! هتشوفي إيه؟ العمر وخلص، والرزق وضيّق بقاله زمان، والراجل على حاله!

-إمتى هتآمني يا زوبة؟

-لا إله إلا الله!

-محمد حبيبي رسول الله، كم مرة قلتلك، النسيان واقف على بابك مستني تدخّلِيه، جايب معاه سعدك وهناكي! حرف اسمه لسه محفور على كفك يا زوبة.

-مفيش جدعان..أبدًا أبدًا..

-هاتي فنجانك..بسم الله كاشف الأسرار، أهو..أنا قلت كده!

-خير يا إحسان؟

-واقفلك ورا كل باب بمطرقة حديد، كل ما ييجي السعد يقوم دَبّه على راسه! يا عيني يا زوبة، عارفة لو مكنتيش لسه عاوزاه كان مشي!

-أعوز منه إيه؟! الشعر شاب يا إحسان!

-لسه عاوزِك، واقف على بابك يا بنت الناس ..

-اللي يفرّط مرة يفرّط ألف مرة، خلاص مفيش فايدة!

-بتكلميني كأني هو يا زوبة، إنتي اللي مانعاني عنه.

-مفيش جدعان ..أبدًا أبدًا!

-حتة مني معاه يا إحسان.

-عشان كده متحرمة عليه الأذية!

كيف أخبرها بما أرى؟ لا أستطيع، فليسامحني الله ويغفر لي، آخر هذا الطريق موجع، أعرف وهأنا أتوجّع، أهْونُ كثيرًا عليها أن أخبرها بقرب موتها هي، لا هو، أراه يُحتضر في سريره، جمرة من النار في قلبه وإلى جانبيه ملائكة الموت، هل أخبرها؟ أم أتركها بذلك الأمل اليائس في صدرها؟

- كملي يا إحسان.

-المغرب بيؤذن يا زوبة، الملايكة تغضب! وأنا لازم أقوم!

-مش هاتبيّتي الليلة؟

-لا يا حبيبة، لازم أقوم!

ما أثقل تلك الدعوة! ما أصعب مناداته! صدى صوته العاصف أرجفني، أمرٌ حاسم بالمسير مجدّدًا، إلى وجهةٍ أعرفها تمامًا، لماذا أنا؟ لماذا هو؟ لا أحب الأسئلة أبدًا أبدًا..

قومي يا إحسان ..سيري يا إحسان ..عقابٌ شديد! ذق إنك أنت العزيز الكريم! أنا المأمورة الآن بانتظار روحه عندما تفارق جسده، وأعود بقبسٍ منها إليها، ألقي في حجرها الشيء المفقود الذي يسلبها الراحة، لم أنتظر طويلًا، حتى هبّت رائحة رياحين من أعلى، لم أدرِ من أين تأتي! رفعتُ يدي، حاولتُ القفز لأقبض على الرائحة، ولكنها ظلّت تصعد سريعًا كدعوات الأمهات إلى بارئها!

شق الكوبري

أشعر بأنها ستكون المرة الأخيرة، ومع ذلك أعددتُ كل شيء كأنها المرة الأولى، رغم أنني ذاهبةٌ بمفردي، وعندما انحنيتُ لألتقط بعض الحصى من أمام بيتي لأصطحبها معي لم أكن أرى الأرض بوضوح، حملتني قدماي بصعوبةٍ إلى محطة القطار، ومن نافذته رحتُ أودّع قريتي التي لا أراها أيضًا بوضوح، كل شيء صار غائمًا أمامي ولكن لم يكن هناك مفر من الذهاب إلى هناك..

آه..لَكم حملت من نساء قريتي أيها الطريق، مرت سنون وشموس وأقمار وظللن يذهبن دون أن يعطلهن شيء عن الزيارة، أما اليوم فكأنما نفدت الأمنيات في قلوبهن، فهل يا تُرى نفدت المعجزات؟ اليوم فقط لم تتحمس أيٌّ منهن كي تأتي معي ولو للاتكاء عليها إن خانني الطريق، لا بد من النزول عند البوابة الشرقية والسير على الأقدام حتى الوصول إلى هناك، إلى «شق الكوبري»، هكذا نُضحي ببعض الجهد لكي تتحقق الأحلام، ولا يجب أن يُخرق أي طقس من طقوس الزيارة المباركة.. في إحدى الليالي العشر الأولى من الشهر الهجري، كنتُ واحدةً ممّن لم يأذنْ الله بخلقهم بعد، مجرد

أمنية على لسان أمي، تطلبها من «حابي» جالب الرزق والولد، وشافي المرضى في المكان نفسه، مشت أمي الطريق نفسه ووقفت على حافة النيل وألقت بالسبع حصوات في مائه مع خرقة مُبلَّلة بدماء حيضها وقالت: «ساعدني يا حابي ..نفسي أشوف ابني ..ساعدني يا حابي»، ثم قرأت خواتيم سورة البقرة، وأخذت ما استطاعت من ماء النيل لتغتسل به تبرّكًا..

لكم ذهبنا إلى «شق الكوبري» ولم يخذلنا حابي قط، كان أزواجنا يقولون: خرافات! وإذا وقع أحدهم في ضيق سأل امرأته أن تجلب معها ماء النيل من هناك لجلب الرزق في بيته! أو ترشه فوق سريره لطرد الفِكر والهواجس التي تلازمه، لقد علمت كل أولادي وبناتي ولم أكف عن الذهاب إلى حابي!

أحببناه واعتدنا زيارته وإن اشتدَّ العَوز وألححنا عليه فلم يكن في عوننا، لأنه حنون ويستمع إلى شكاوَى المنكسرات، كنا ندري أن هناك أشياء نطلبها فوق مقدرة حابي، ولكن التفافنا حول قدسه في الشدة يبعث في قلوبنا الطمأنينة والرضا بالمكتوب..في تلك الليلة المشهودة ظلت العشرات من النساء يبكين ويصرخن ويعدّدن بعد غروب الشمس، خرجتُ عارية الرأس أخشى سؤالهن من مات لأنه حتمًا سيكون أحدًا أعرفه، بالتأكيد طبختُ له يومًا ما أو أرضعته من صدري مع أولادي..ولكن لم يكن الأمر كذلك.. كان أسوأ بكثير!

خرجت لأجد كلًّا منهن تحمل رضيعها، كلما سألتُ إحداهن أشارت إلى وجهه كأن على الطفل أن ينطق ليشرح لي! رحتُ أبحث في وجوه الأطفال النحيلة، أتفقد ملامحهم الصغيرة، صراخهم وعويل أمهاتهم يختلطان، كلهم بعيونٍ مصابة، يغطيها الدم، ارتعدتُ من هول ما رأيت، افترشن الأرض يومًا بعد يوم، ينتظرن بزوغ الهلال بفارغ الصبر فيذهبن إلى «شق الكوبري»، لعرض الأمر على «حابي» فماذا تراه فاعلًا في تلك المذبحة؟ وكيف سيعيد عيون الأطفال من جديد؟

حملنا القطار إلى النجع، كلنا، نساءً وأطفالًا، ووقفنا نشكو لحابي ما جرى، نبكي ونغسل عيون العيال بدموعنا وبماء النيل، نقرأ المعوذتين وخواتيم البقرة والسبع المُنجِيَات، «يا الله.. يا إله حابي وخالقه..»، لم يحدث شيء، لم يتغير شيء..عُدنا إلى قريتنا بعد المغرب، هتف فينا أحد الرجال: «مخبولات ..مخبولات..مال حابي وعيون العيال التي نقرتها الديكة؟».

لم ترد أي منهن..كان الصمت مطبقًا ولا يُسمَع سوى حفيف أشجار الصفصاف المائلة على ضفة النهر، حتى الأطفال نامت في أحضاننا من تعب الطريق أو ربما تسلَّل يأسنا إليهم فسكنت ثورتهم..قبل أذان الفجر بقليل أخذت الديكة في الصياح، دوَّى الصوت في آذاننا جميعًا أكثر من أي يومٍ مضى، هبّت «صفية» تريد ذبح الديكة كلها، سمعناها وخلفها زوجها يحولُ

دونها ودون الطيور الفَزِعة، كلنا أردنا ذبح الديكة..كلنا..

لم أجرؤ على التصريح بأنهن مخطئات! تركن العيال خلفهن وانهمكن في تنقية الحبوب، فظفرت الديكة بعيونهم الصغيرة..

اليوم كبر الأبناء وفارت أجساد البنات، وكفّت نساء قريتي عن الذهاب إلى «حابي»، أما أنا فليس لي ملاذ آخر، كل خطوة أخطوها وصولًا إلى شق الكوبري ربما قربتني من تحقيق أمنيتي الأخيرة، ربما لا أستطيع الآن أن أرى الخطوط الطويلة المرسومة فوق صفحة النيل هنا، حتى شبح «حابي» الذي كنتُ أتخيله يبسط جناحيه فوق النيل لم يظهر لي..

«حابي..أنا عارفة إنه صعب، صعب زي عيون العيال المنقورة وأكتر، بس دي عين ابني يا حابي، أنا ماسبتوش ورايا زي ما عملوا زمان، وسهرت عليه لحد ما عيني أنا اللي قربت تروح، كبر وبقى مهندس، ببركة مايتك الطاهرة، كان بيجري في شارع كل اللي فيه ماتوا، اتقتلوا يا حابي، الرصاص فاض منه كتير، لعبوا به في عيون ابني واصحابه، عين ابني اتصفّت، ديك بعُرف اصطادها ببندقية، آه يا حابي..رجع لي عين ابني وخد عينيّ»..

شدّي حالك

أستطيع أن أميّز من بينهم إذا طرقوا بابي، فأعرف مِن أكفّهم مَن خلّف وراءه ميتًا، يبسطون أيديهم مستسلمين يائسين، متخذين بين البطء والإسراع سبيلًا، ليس كطَرْقِهم في السابق عندما كنت أُمرّض ذويهم، ذلك الدق المُلِح المفعم بالأمل، فأُسعِفُ جروحهم وأقوم بتغيير اللفافات يومًا بعد يوم حتى تطيب، أدلّهم على مداواة الحروق بالزبد، أو أعطيهم حقن تسكّن آلامهم وتجعلهم ينعمون بالنوم العميق فيُصبحون من ليلتهم متعرقين بالشفاء.. قبل دقائق كنتُ أتأهب لحضور عرسٍ في الحُلم وطُلِب مني تجهيز العروس، فتّحتُ عيني على صوت حمارٍ يستغيث، هكذا أظن كلما سمعتُه، كأنه يرى ما يخيفه أو يسمع ما يؤذيه، شيئًا أكثر قبحًا من الشيطان الذي ظَلَّ برفقته حتى على عتبة سفينة نوح وحاول منعه من الدخول لينجو: إنه الموت..

إذًا الدَّقُّ اليائس يقول إن لديّ عملًا اليوم مَعنيٌّ بالموتى لا بالأحياء، كما هو الحال منذ عشرين عامًا، والحق أني لا أفتقد التعامل مع المرضى مطلقًا، ولم أعد أكترث لأمرهم، فالسعادة التي كانت تغمرني عندما يُشفي أحدهم باتت تتلاشى تدريجيًّا، ليس فقط لوقوفي عاجزةً أمام جرحٍ غائر ملوّث يحتاج

إلى كيلو قطن يوميًّا مشبّع بصبغة اليود والمراهم والدهانات وفي النهاية لن يلتئم، أو عدة أجساد مصابة بأعيرة نارية إثر مشاجرة بسبب بضعة جنيهات، أو لأن ثقة أهالي حي الشرّابية في «شَرّابيّة الحكيمة» تآكلت يومًا بعد يوم أمام روشتات الأطباء وغرورهم وهم يُملون مطالبهم على مسامع أهل المريض،«شَرابيّة» التي سمّاها أبوها ليمتد ذكرى (الشَّرَّابة) سقاة الناس منذ زمنٍ بعيد -وهو منهم- باتت أشبه بـ«شُرّابة الخُرج»، لا تحلُّ أسقامًا ولا تربط جروحًا، ولكن أيضًا لأنني تعبتُ من عذاب الإحساس بالأمل دون جدوى، فحسمتُ أمري عند أول فرصة أتت كي أعبّر للموت عن عظيم احترامي، كي أدين لهذا القاتل بالولاء الكامل وأودّع برضا تام فقيديّ: ابني الذي غادر في هدوء وهو نائم، ومهنتيَ القديمة ..

«شَدي حالك» أقولها وأنا أصافح ابنة المتوفاة الآن، كما تصافح أمها الموت في اللحظة نفسها، وصافحه ابني في لحظةٍ سالفة، في كثير من الأحايين لا يجد المرء أمامه سوى أن يسلّم على عدوه، وقتما لا يمتلك القدرة على هزيمته، وكما قيل في الأمثال: «ما محبة إلا بعد عداوة»..

أتساءل كل ليلة: كيف يتسع قلبي لكل هؤلاء؟ كيف أتفقد وجوههم بشجاعة ملك موت وأسامحهم بسرعة وصول الورثة؟ ربما لأنني رأيتُ منهم ما كفاني، رأيتُ جثامينهم للمرة الأخيرة قبل أن أسلمَهم للعَدَم،

مسحتُ عنهم البول والدماء واطَّلَعتُ على العَذِرة والعُذْرة ..ولَكم شممتُ ما أكره بقدر ما طَيّبتُ بما أحب..

الجزء الأصعب في الحكاية أنك تكون على صلةٍ بالميت، إنْ دَخَلَ طعامُه جوفَك وسقاك من مائه وكساك من ملبسه، كما هو الحال مع جارتي التي سأذهب فأراها للمرة الأخيرة كي أجهزها للعرس مثلما رأيتُ البارحة في الحلم، بيت الحاجة «أم إبراهيم» عامرٌ كالعادة، بيتٌ لا ينفد منه الطعام قلّ أو كثر، لا تدري كيف أو متى تم إعداده وهي إما جالسة أو نائمة، لا تقف سوى كي تذهب إلى دورة المياه على (مشّاية) كالتي يستخدمها الأطفال حديثو العهد بالسير، أوصت «ست النعم» -وهو اسمها- بوقوفي على غُسلِها، وعندما اشتدَّ بها المرض سألت أولادها: ماذا ستحضرون لي في عيد الأم؟، قالوا: ما تطلبين؟ فقالت: أريد كفنًا تشتريه «شَرّابيّة» من «عوف» وقولوا لها أم إبراهيم توصيكِ بطول السُّترة وكثرة الطيب..

في «عوف» زاغت عيناي على اللفائف بأقطانها وحريرها، اشتريتُ كفنًا قطنيًّا وآخر من الحرير، قلتُ في نفسي: لا أحد يدري، فكل ميّت ينادي كفنه، أما الليفة فكانت من النوع الذي أفضلّه، أليافها ناعمة ذهبية تشبه ذيل حصان أشقر ملفوف، لها شكل مغرٍ فتتوق النفس إلى حمامٍ ساخن بـ«الكوز» كما كان الحال قبل أن يصير لديّ سخان، شعرتُ كأنها تناديني، فسألتُ البائع إن

كان بإمكاني شراء ليفة من دون كفن، فقال: لا، صمتُّ وأنا أتيقَّن من وجود زجاجات المسك الأبيض والأسود والكافور والعود إضافةً إلى السِّدر، كلٌّ له وظيفته واستخدامه في أثناء التكفين..

تمنيتُ أن ترحل «ست النعم»، وذلك لأني أحبُّها ولا أريد لها عذابًا، كانت تلك المرأة هي الوحيدة التي لا يُصيبها النفور مني بعدما تحولتُ من حكيمة إلى مغسّلة، الإنسان يموت عندما تلفظه الأماكن التي يُحبها.. ظلّت تطلب مني التغيير على قدمها المريضة من دون علم أبنائها أو أحفادها، المهم ألا يرى أحدهم ما آلت إليه، أم إبراهيم وأنا كلتانا تكره الأطباء، وبقدر كراهيتي للعودة لتلك المهنة فلقد وافقتُ من أجلها فقط، فكان مرض السكري اللعين ينهش أصابع قدميها وكنتُ أتفنن في العناية بهما، فأضعهما في الماء المملح وأطهرهما بتلك السوائل الدكناء قاتلة الجراثيم، رأيتُ كيف تتبدّل ألوان أصابعها بالتدريج حتى صار أكبرها أسود اللون، شعرتُ بالقلق ولكني لم أرد إخافتها، أعرف أن الأمر قد يؤول إلى بتر الإصبع أو القدم وأحيانًا الساق! هؤلاء القساة لا يرحمون!

ساورني القلق، ذلك الذي بتُّ أهرب منه طوال تلك السنوات، هل أقول لأبنائها؟ أم أحدّثها بضرورة رؤية طبيب؟ أم إبراهيم لا تتألم مطلقًا، لا تشعر بيدي حتى عندما أضغط على جراح قدميها المفتوحة، لماذا أزعجها وأعرّضها

لشيء بشع اسمه البتر؟ لمَ لا أدعها جالسة هكذا بابتسامتها الواسعة عندما تسمع صوت «صليب» بائع السمك مناديًا فتطلب مني شراء البلطي الصغير وسمك المكرونة منه؟ وتفرح بالقشور عندما تتطاير -وأنا أنظفه بجوارها- إلى حجرها، أشوي البلطي وأقلي المكرونة ونأكل معًا؟ أمرٌ لا يحدث سوى في بيت «ست النعم» التي لا تخشى من نذير الشؤم «شرّابيّة»! فتكتّمتُ سواد القدم كي أنقذ قلبها من سواد الفقد إذا أتاها زاحفًا!

كل شيءٍ مُعدٌّ الآن، الكل ينتظر شرّابية ويستقبلها باحترام، تمامًا كما شيّعوا طبيب الصحة حتى الباب، من تحت نقابي تطلّعتُ إلى نظراتهم الحزينة المختلطة بالحيرة، بين الصمت والبكاء والصراخ، توجهتُ إلى حجرتها فلمحتُ أسطوانة الأوكسجين مرتكنة إلى إحدى الزوايا، تذكرتُ أني نسيتُ إحضار «صبغة جاوا» معي اليوم، كانت تخبرني أنها تشعر بالغرق، كأن الماء يغمر صدرها حتى أنفها، فأجعلها تستنشق بخرها الساخن المتصاعد إلى أن تظهر عليها علامات الراحة لأنها تمكنت أخيرًا من جذب نفس عميق.. وجدتُها فوق السرير المعدني المنصوب من أجل الغُسل، فإذا بها راقدة بلا حراك، وقد لفّوا حول وجهها منديلها الأزرق القديم بزركشته من الورد الأصفر والأحمر، كأنه قطعة (قماش خيّامية) فلم يحكموا ربطه، يتدلّى فكها السفلي فظهر سنها الفضي، عيناها مغمضتان، في كل منهما خيطٌ لامع دقيق

تحت أهدابها البيضاء، بدت ست النعم كأنها نائمة لدرجة أنني تشككتُ في موتها.. وضعتُ يدي على قلبها فكان صامتًا، قلتُ السلام عليكِ يا أمي فلم ترد، قبّلتُ يدها وجبينها وبكيتُ، من دون صوت، لا ينبغي أن تبكي شرّابية أمام أحد..

طلبتُ أن يخرج الرجال جميعهم من المنزل، طلبتُ الكثير من الماء الدافئ، طلبتُ كذلك أن تبقى من تقدر على احتمال الغُسل ممن أوصت بحضورهن، بسطت اللفائف وكان لا بدّ من تخييطها في بعضها البعض لتستوعب جسدها الممتلئ فانهمكت بناتها في القيام بهذا العمل، بينما شردتُ أنا في تلك الحركة شبه المستمرة والتي كانت تقوم بها في آخر أيامها وهي غائبة عن الوعي، كأنها تخيط شيئًا، نادتني ست النعم ضمن مَن نادت، «رئيسة» زوجة التُّربي وزوجها المتوفَّى وأخواتها الراحلات جميعهنَّ..كنتُ أتعجب كيف تمرض تلك المرأة برأسها ورئتها وهي التي كانت مغرمة بأكل رؤوس السمك وخياشيمه؟

أخرجتُ الليفة الذهبية وقد بقيت اثنتان من حفيداتها واثنتان من بناتها، ابتسمت لهن وأنا أضع كفي فوق جبينها المُندّى فقلت تلك دلالة على حسن الخاتمة فاشتد بكاؤهن، أخذتُ في صَبِّ الماء صبًّا فوقها وهي مغطاة بملاءتها المفضلة.. لماءِ الغُسل صوتٌ مختلف فوق الجثامين، يذكّرني دائمًا بالتخلص

من جنابة الليلة الأولى، وغسل آخر ليلة من ليالي النفاس، تلك الحياة! كيف لا يصير فيها شيء ذا قيمة سوى ذلك الذي يشبه الرحيل عنها؟

ليفةٌ طيّعة ناعمة..خُيّل إليَّ أن أم إبراهيم تستحسن الأمر، انفرج فكُّها قليلًا خاصةً وأنا أصُبُّ الماء فوق شعرها، قسمته ثلاثة أجزاء وبدأت في تضفيره، هُرعت الحفيدة الكبرى في تضفير جزء وأشارت إلى الأخرى لتضفّر الشعر المتبقي، قالت لها: ضفِّري، فذلك جيّد لمن لم تنجب بعد، تعجبَت الصغرى ولكنها فعلت كما طُلِب منها، كانت تبكي بكاءً مرًّا وتهمس لست النعم بأنها تضفّر شعرها الآن كما اعتادت هي أن تفعل معها في الصغر وباتت تحدثها: «ضفريه عشان يطول»..

الآن وبعد الغُسل الأخير أستطيع أن أشتمَّ رائحة الأطفال الرُضَّع تفوح من جسدها الطري، الآن يحضر الملائكة من حولنا ليؤمّنوا على الدعاء لها، أحشوها بالقطن، وقلبي محشوٌّ بالفقد، ألفُّ حولها الكفن مثلما اعتدتُ أن أربط جروحها، طبقات.. طبقات.. القدم المريضة غادرها السواد، لا لأن الجرح قد طاب ولكن لأنهم بتروها..

لا فائدة، العجز يطاردكِ من جديد، قدمها المبتورة ليست هنا، فمها مفتوح لتسقيَها -يا شرابيّة -ولا تقدرين.. كثرة الطِّيب لم ترد دود الأرض عن ابنك..

لن آخذ مالًا من «ست النعم»، لكني سآخذ تلك الليفة الذهبية، سأغتسل بها الليلة هي و«الكوز» الألومنيوم، سأدسُّ أنفي في صحن كبير مملوء بالماء الساخن وأذوّب فيه صبغة «جاوا» فأستنشق بعمق كي يتطاير معها مخاط الأحزان اللابد في روحي، سأشتري أكلة سمك من «صليب»، أحيكُ من الكفن الحريري عباءةً، ثم أبحث عن عرس في الحي غدًا لأحضره، ذلك «الحي» كالحياة، لا تنفد منه الأعراس ولا المآتم أبدًا..

بحار أحادية الشطآن

خطر ببالي –للمرة الأولى– أن أتحول إلى الكتابة الساخرة، شعرت أنه ربما يصير في إمكاني أن أكفَّ عن السخرية من نفسي، نعم .. أليست الأحلام المستحيلة ضربًا من سخرية النفس؟ ماذا لو؟ ماذا لو قامت كاتبة ناشئة قبل أن يحفظ اسمها أي إنسان بهذه الخطوة الشجاعة وأقلعت عن كتابة ترهات روحها المهزومة؟ ماذا لو أفلحت في خلع رداء الجدية المفرطة وأسدلت الستار على طموحها الكبير غير المنطقي بتحقيق ذلك الحلم: «أنجزي سبع روايات واكتبي عشر مجموعات قصصية..قبل الأربعين ..قبل الأربعين فقط!».. أظن أنه قد آن الأوان أخيرًا كي تستسلم تلك الفتاة المجذوبة من عينيها ومن أذنيها، الزاحفة فوق قلبها، وهي تقبض على مُخِّها النازف بيديها..

كما أنه من المضحك أن تظل الحالمة على ضلالها القديم حتى في اللحظات الأخيرة من حياة ما تنوي قتله، شيء ما يكبر تدريجيًّا مع تناقص فرصة أي رجوع متاح، وهمٌ آخر: «ربما المجد الذي تنتظرين يجدك في الشاطئ الآخر، ربما لم يكن هناك طوال الوقت أي شاطئ سوى هذا الآخر، ألم تسمعي من قبل عن بحار أحادية الشطآن؟ بالطبع لا، وهذا جيّد..أقصد أنه جيد

ألّا تعرفينها؟ اكتبيها إذًا..وستسألين: وما الساخر في بحر بشاطئ واحد؟ وستقولين: إنه لأمرٌ حزين وباعث على القنوط، مثل كاعب أمازونية بثدي واحد، وأقول: أليس من المضحك أن تكون الكتابة أجمل عندما تكتبين عمّا لا تعرفين أو تدركين؟ ألا يهدم هذا كل ما بنيتِ من قبل أيتها الحمقاء؟»

بلى..بلى أيتها الأوهام.. كانت ذراع ذلك الرجل المسكين لا تتوقف عن رسم علامة «اعبر» للمارة من البشر والسيارات، مَنْحهم حق لا يطالبون به أبدًا لأنه في قبضتهم، والخلع على روحه الشريدة منصبًّا لم يدعه أحد إليه مطلقًا، ومع ذلك فلم يكفّ عن الإشارة، حتى عندما يأكل باليد الأخرى أو يتناول كوبًا من الشاي أو يتبوّل في بنطاله أو يسقط على قارعة الطريق مغشيًّا عليه كانت تظل ذراعه مرفوعة إلى أعلى، هكذا كنتُ أراها..هكذا كنتُ أريد: ألا أكفَّ عن الإشارة..

كانت الإشارات كثيرة، مغرية، أبواب تنفتح أمامي ثم تَدْخُلُني، بالوعة أبواب أنا..في مدينتنا لن تجد بالوعة محكمة الغلق، وكأن السيل لا ينقطع عنها، ذلك الذي لا نراه سوى بضع ليالٍ كل عام..وهذا من فقر مدينتي التي تشبهني، يومًا ما كنتُ سأكتب كيف أرى البالوعات نصف المفتوحة أشياء مغرية ومثيرة، هل هو شبح فتاة الليل السينمائي وهي تتسكع بالكعب العالي فوق الأسفلت بطول الطريق المملوء بالبالوعات نصف المفتوحة أو حتى

العارية تمامًا؟ يومًا ما كنتُ سأكتب عن الحب الذي لم يكن مفتوحًا أو مغلقًا كليّةً أمامي في أي يوم..عج حلقي بأقفال الأبواب التي ابتلعتُها والوعود التي حنثوا بها، هذا أيضًا لم أكن أعرفه: إنهم حينما يرجعون عن وعودهم تعود إليك!

مدينتي يسكنها العجائز وأولادهم الذين لم يولدوا قط، أما هذا الزحام المبالغ فيه، الأجساد الطرية الرجراجة التي تتنظر الخبز في الطابور، والفؤوس المنتصبة أمام العتالين فوق الأرصفة وحتى دماء الأطفال الغائبة عن أجسادهم المريضة، الحاضرة فوق موائد تقايض على دمائهم الجديدة كل يوم، كل هذا أشباح..مجرد أشباح..

كم من الوقت أضعتُ مع أشباح المدينة؟ أراقبهم عن كثب، أتطلّع إلى وجوههم النحيلة، أتتبع العلامات التي يشيرون إليها في صمت .. كنتُ هناك دومًا.. عندما يولدون ويعشقون ويذنبون.. الأشباح يتقنون أشياء عديدة، يعرفون الإخفاق جيدًا.. أنا أيضًا أعرفه، ولكن أبدًا لن أكتب عن الأشياء التي أعرفها مرةً أخرى..

ربما كتبتُ عن الوباء الذي لا أعرف اسمه، هذا الداء الذي ينتقل من الأسقف والجدران صوبًا إلى القلوب، يضيّقها فيجعلها تضِيق بمن فيها، يكرمش عضلاتها ثم يجوّفها من الداخل ويتركها للموت البطيء..

ولكن كيف تكون البداية قوية لكاتبة ناشئة..ساخرة؟ هل أكتب عن الحب؟ الكوميديا السوداء التي لا نعلم كيف تُضحك وتبكِي إلى هذا الحد وبالقدر نفسه! ولكن عليَّ أولًا أن أتخلص مما أعرفه ..من تلك الأفكار الراسخة: «من ابتعد يومًا ابتعد دهرًا..ذلك لأنه يستغني..وبعض الحب احتياج ..»، يا للحكمة المتضخمة مثل ورمٍ مؤرق وخبيث! كان عليَّ أن أدوّن كل شيء، أول عبرة وأول كسرة وأول نومة عاشق خارج أحضان معشوقته، ومتى استطاع المحب الذي بات يقول لا أستطيع العيش بدونها أن يحيا ببساطة في غيابها، ومتى توقف أي إنسان أصلًا عن العيش بدون آخر؟

لمَ لم أدوّن هواجسي الأولى بأنه سوف يُنسى ويُعتاد؟ وأنه سوف يُملّ مثل الجميع؟ لماذا لم آخذ الأمر بجدية؟ ألم تكن خير بداية لكتابة ساخرة مدهشة؟

من السّخف أيضًا أن شيئًا ما ينكسر ولا يعود عندما يتقارب اثنان حتى التوحُّد.. إنها الحدود التي تفصل بينهما، كل الحدود ..ولذلك كنتُ أعرف أن ما حدث من قبل لن يحدث مجددًا..

كنتُ أعرف..وما أسوأ هذا اليقين!

ما حدث قد حدث، فقد أخذت الحدود الفاصلة بيننا في الانصهار منذ اللحظة الأولى وبرغم كل ما حدث لي وأرغمني على نسيان حوادث عديدة في حياتي فإنني ما زلتُ أتذكر تلك اللحظة جيدًا، ماذا يحدث لك عندما ترى روحك في صورة؟

دهشة ..دهشة لم تزرني قط بعد ذلك، كان يبدو وكأنه يتصدر العالم في تلك الصورة ..بدت في تلك اللحظة كل الأشياء خلفه فعلًا.. كل عالمي خلفه!

كنتُ أحسب دومًا أن الوقت اللازم لتفاحة كي تفسد هو ذات الوقت الذي قضاه آدم حتى لقيَ حواء في الأرض بعد الخروج، ولقد لقيتُه دون أن يبحث عني، لستُ متيقنة من ذلك ولكن المؤكد أنه وجدني قبل أن يزحف العطب إلى قلبي، لم أكن في تلك الحكاية حواء ولا التفاحة كنتُ الشجرة الحزينة المحرّم أُكُلَها!

هاتفني للمرةِ الأولى، وثمة عوالم لا تنفتح سوى بالصوت، ويؤججها الصمت، كل نبرةٍ تخرج من ثغره تحدِث نبضة زائدة في قلبي، تنعجن في دمي وتقذف وردًا في شراييني، حدثني مرتبكًا عن مشاعره المختلطة وأنه لا يستطيع التعبير، لهاثه وهو يمشي أسقط الحروف الأخيرة من جمله القصيرة ثم بدأ يحكي عن الحديقة القبيحة التي يهاتفني منها، قال: برغم هذا الظلام

الدامس أستطيع أن أرى كم هي قبيحة وموحشة، أخذتُ الأمر بشكلٍ شخصي وشعرتُ بأنه يشير إليّ، التلاعب بالألفاظ في مثل تلك الحالات لا يورث سوى الغضب، ولكن كل ما فعلته كان الصمت وزالت حماستي تدريجيًّا عبر دقيقة كاملة استغرق هو فيها ليصف أشباح أشجار الحديقة وروائح الورد البلدي المنتشر، قال: رائحته فاترة كأن هذا الورد قد اشتُمّ آلاف المرات..شردتُ في إشارته المخيفة، هل يحسبني رخيصة إلى هذا الحد؟

ثم قالها، قال: «أحبك»، سليمة وواضحة وبلا حروف ساقطة، شعرتُ بخدرٍ يسري في كياني، وجنائن من الشوق تُنبتُ في حجرتي الصغيرة، ومن يومها لم أتوقف عن حبّه ولم يتوقف هو عن تعذيبي، حتى تاريخ مكالمتنا الأخيرة..صوته المرتجف في المرة الأولى صار كالوتد الراسخ بلا معنى ..بلا داعٍ، لأن رياح الحب وعواصفه قد سكنت لديه منذ وقتٍ طويل.. سكون الظامئ بعد ارتواء ..ري وراء ري، امرأة أخرى أشبعته، عالجَت ببذخ عطاياها رغباتِه..ولقد شممتُ هذا ..لم يكن يدري أن حبه أصابني بنوع نادر من الصرع، قبل نوبة الجنون هذي، أشتمُّ روائح شديدة الندرة، كانت روحه مشبّعة برائحة باردة كأنما هبت من جبل جليديّ، ثقيلة كسحابة وصامتة مثل العدم، رائحة موت ..قتل..

أظن أنني عشتُ طويلًا جدًّا لأشاهد كيف يتحول المحبون إلى كائنات غير مبالية، هذا هو أرذل العمر، هنا يشعر الإنسان بأنه قد هرم بما يكفي، القلوب التي تشيب لوعةً واشتياقًا انقرضت منذ زمن، صدأ الخيبات المتراكم سريعًا يأكل القلوب الغضة ويترك أصحابها أشباه أحياء..

أحاديث الحُبِّ تُثير اشمئزازي، غير أنها أصبحت «لا تأكل مع الناس»، تعبير جديد من القاع ولكنه مناسب هنا، بينما تستطيع «المهرجانات» اختراق الموائد الصغيرة فوق عربات الفول، وكِسَر الخبز «المفقع» ودَش فحل البصل فوق الطبالي، تشرب البانجو وتتعاطى أقراص «الكيميا» وترقص في الأفراح سكرانة، وتتحرش بالفتيات ..قد تكون تلك بداية جيدة: «الذين يأكلون مع الناس «، أم تراني أكتب عن خَبَل الحكام؟ أم عُهر الإعلام؟ فأغير العنوان إلى «الذين يأكلون النَّام نَام»؟ لا بدّ أن أعترف، بأن هؤلاء هم صانعو الإبداع الحقيقي فهم كالذين –وبرغم تناولهم نفس نوع الطعام–يضرطون بروائح مختلفة!

الاختلاف هو السر إذًا ..اصنع مهرجانك الخاص واضرط عاليًا!

لا بأس ..ماذا لو صرت فتاة تقدّم مهرجانًا؟ وتهمس في مكبر الصوت بحنان نسميه نحن ميوعة:

(البطلة تقف فوق مسرح صغير منصوب في شارع ضيّق وخلفها فرقة موسيقية صغيرة وأمامها حضور يصفّق بحماسة).

«أقدم لكم المهرجان القنبلة..قنبلة ألف رطل مش بدائية الصنع ..المهرجان اللي بيغني فيه ملوك الشارع، مهرجان كريسماس الربيع .. مهرجان الديابة السبعة ..مايوركا بيغني على أرض مصرية، القمة الشعبية بيوجّبوا مع المرزعجية والمدفعجية، وأوكا وأورتيجا دايسين مع فيجو وعمرو حاحا، وكما قال شاعر الغِية اللي بيقدم التحية: البحر بيحب الزيادة والدخيلة علطول ولادة، ولا هكتور ولا أخيليس ده احنا احتلينا طروادة!» اسمع يا نجم، اتعلّم يا شقيق الحكاية، قبل ما حد يعلّم عليك، قبل ما الأوكازيون يخلص، قبل ما المهرجان يبتدي، دي شغلتي، ولا بتقدم ولا بتأخر، زي اللي بيدن في مالطة، ادولي قلب ومسكوني قلم.. و..»

(تبدأ موسيقى التكنو الصاخبة ويغني أحدهم في مكبر الصوت ويطغى تمامًا على صوتها):

-ولا هكتور ولا أخيليس ده احنا احتلينا طروادة ..

-(بصوت غير مسموع) نفسي حد يقراني..

-وعملنا البحر طحينة وقلبنا اللانش سفينة

-(بصوت غير مسموع) فرصة واحدة..

بحر بشاطئ واحد..بحر بشاطئ واحد !

– عاوز تعوم عوم على قدك ..بحورنا واسعة وهتهدّك ..

(الكلام لم يعد يخرج من فمها كأنها تغرق وتكنو المهرجان يعلو أكثر وأكثر)

–بحورنا واسعة وهتهدّك ..

بحورنا واسعة وهتهدّك!

ظل الخوف

معجزةٌ ما حدثت في حياتي عندما وقع بصري على ظلِّها، فلم يكن منطقيًّا أن يقع أحدهم في غرامِ ظل صاحبته قبل أن يراها، ثم لم تكن مصادفةً أن ترتدي هي هذا الثوب في مكانٍ كئيبٍ ومظلم رغم كل هذا الضوء الوافر والحَرِّ الحارق، أما أنا فما زلتُ أسأل نفسي: لماذا فاجأتني حُمى الإحساس بالذنب في هذا اليوم تحديدًا كي أكسر غيابي الطويل الهانئ عن الجامعة؟

لا شيء يحدث لغير ما سبب، ذوبانك في لحظة تكتشف فيها وجودك بحيّز الظل الذي كان يشغل ذهنك في لحظةٍ سالفة، لأنك تذكرت لتوِّك ما قرأته قبل أيام: «تكمن بدايات الظل ونهاياته بين النور والظلام، ربما تضاءل أو ازداد بلا حدود، لكنه الوسيلة الوحيدة التي تعرض هيئة الأجسام ومن دونه لا يمكن فهم تفاصيلها أبدًا»، عناق لحظة بأخرى ألقى بذرّاتِهِ غير المرئية على قلبك، اعترضته ورودُ ثوبها الصغيرة الهاربة منه، كيف رأيتَها حرةً وملونةً ومثقوبةً بالضوء على خلفية من الظل الداكن على الأرض؟

«الحاضر كالنهر، حيثُ الماء الذي تلامس هو آخر ما مرّ وأول ما سوف

يأتي»..أبصرتُها وتبصّرتُ بما يحدث لي، ليس دقًا قلبيًّا عشوائيًّا ولا ذلك الممل الذي يقتلك في ليالي الوحدة الطويلة، هو إيقاعٌ سريعٌ لفتح مملكة سماوية، ودفق قطع من الذهب الخالص في جاذبيةٍ قمريةٍ بطيئة بين خلاياك، كونك تتقن الرسم لا يجعل القدر بالضرورة يتحداك بهذا الوجه العجيب، ولا يجبر كذلك كل الكلمات التي حدّثوا بها من قبل عن الجمال على السقوط من أوزانها ثم على السمو في آنٍ واحد، كل ذلك في زمنٍ يعادل مسافة طرفةِ عينها.

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أنثى سمراء وشقراء، الفراشة والزهرة معًا، الطير وصائده في بدنٍ واحد، دلفتْ إلى المدرّج الكبير وثوبها المزهر يتبعها متعةً للناظرين، لم أنتبه أنني أسير خلفها إلا عندما طارت خصلةٌ من شعرها الحُرّ إلى وجهي مسحته من أعلى إلى أسفل، فأعاذتني بها منها، وأجّجَت رغبتي في ملاحقتها طوعًا، لا لشيء سوى أن أظلّ في حضرة الظل المصاحب لها.

جلسَت فبدا لي أن هناك شيئًا من الممكن أن يستوعب بهاءها دون أن يذوب أو يتحطم، التفّت صديقاتها حولها، بينما أحاولُ الاستيلاء على كرسي متميز في الصف الخلفيّ يطل على زاويةِ وجهها اليسرى حيثُ يداعبها شعاع

الضوء الجانبي، وأستطيع من خلاله استراق السمع لحديثها.. كانت تحكي بحزنٍ تخالطه السخرية عن شحاذٍ أشعث قام من نومته فوق أريكة الانتظار الخشبية الطويلة على محطة الترام ليشاكسها، ظِلٌّ يتحدث إليها في جدية عن الأحوال السيئة والبشر الأكثر سوءًا.. حَكَت أنها كانت ترتعد خوفًا من حركةٍ مباغتة منه تؤذيها، وفي الوقت نفسه تحرّجت من الانصراف بعيدًا فتزداد حمولة حقيبة أوراقه السوداء المهترئة باسمٍ آخر تخلّى عنه، وإن كان اسمًا لا يعرفه..

«آن».. هكذا يناديها الجميع، قالت لهن في شجاعة أنها قد منحته ابتسامة، وتهللت أساريره حتى أنه لم يلتفت إلى بضعة الجنيهات التي دستها في يده، لم تبذل تلك المخلوقة أدنى جهد كي تستحوذ على قلبي، والذي خشي عليها من الكلمات تخرج من ثغرها بحماسة فتؤذيها، وهي تقول: «لا يزال هناك أمل في إسعاد أحدهم»..(ادخري روحك من أجلي يا «آن»)، جملة قاطعة قالها شابٌّ مقتحمًا ثلة الفتيات في جرأة، متوجهًا رأسًا إلى الكرسي المجاور لـ«آن»، ارتدى نظارة شمس سوداء و«تي شيرت» أحمر وسروالًا من الجينز القذر – هكذا يسمونه – كالح الزّرقة.. وهنا أحسستُ بأنني هذا السروال، يسكبون فوقه كمًّا هائلًا من صبغة النيلة الزرقاء ثم يتركونه وحيدًا ليتجمد في الشمس فوق مدبغة خشبية عالية خلف سور مجرى العيون!

عرفتُه طالبًا يؤدي تحية العلم كل صباح، «أسامة».. أحد الطلاب المتميزين في مدرستي، يصغرني بعام، يشارك في مسابقات نجم المكتبة وأوائل الطلبة وحفظ القرآن وإلقاء الشعر وكرة القدم، يتحدث أساتذته عن نبوغه وعُلقت عليه آمال كبيرة في الوصول إلى أوائل الجمهورية في الثانوية العامة، هو الآن شاب يافع في عامه الجامعي الأول بكليةِ الصيدلة، حتى الآن لا يمثل كل ما أعرفه عنه أي إنجازٍ بالنسبة إليّ، كونه إلى جوار «آن» هو الإنجاز الوحيد الذي أحسده عليه!

راقبتُ ابتسامتها في وجهه، أضاء مثل أول ضوء يخرج إلى الدنيا، هذا البريق المترقرق في عينيها العسليتين يطفو فوق نبعٍ صافٍ، وشفتاها الدقيقتان تنفرجان في فرحةٍ غامرة، وشعرها الطويل ينثني وينبسط بين أصابعها وهي تداعبه في زهو، هل «آن» حقيقة؟ أم هي «يوني كورن» المسحورة وقد قفزت من حكايتها هاربةً من الثور الأحمر الناري لتجلس إلى جانب هذا الرجل الأحمر المصبوغ بالنيلة؟

«تعلمتُ منذ زمن ألا أتصارع مع خنزير، لأنني سأتسخ أولًا وسيسعَد الخنزير ثانيًا».. دار بينهما حديثٌ ضاحك، وضع «أسامة» دفترها فيما بينهما واحتوى يدها الصغيرة في يده أسفل الدفتر.. شعرتُ أن يده تعتصر قلبي

والدم يصعد إلى وجهي، كان لا بدَّ من إنهاء هذا العذاب.. كان لزامًا عليّ أن أتوقف قليلًا عن التلصص وأصرخ في وجهها: إني هنا وأحبك.. قاطعتهما: «أسامة؟ كيف حالك؟».. نظر إليّ في توجُّس وبدأ يتفحص وجهي فلم يبدُ عليه أنه يعرفني، وسألني مباشرةً: من أنت؟، قلتُ: زميلٌ لك في المدرسة يكبرك بعام، وأسهبتُ في شرح سيرته الذاتية المشرفة، رمقتني «آن» في استحسان، تقمصت دور السيدة الأولى التي يسعدها نبوغ زوجها ونجاحه، كنتُ على استعداد إلى قول ما ليس فيه حتى تطيل النظر أكثر في وجهي، سألتُه ما الذي أتى به إلى كلية الإعلام هنا؟ فنظر إليّ في تحدٍّ: «خطيبتي آن»..

هو كاذب، لا يرتدي أيٌّ منهما خاتمًا، ولا يصلح أن تتزوج (يوني كورن) في نهاية القصة من ثور أحمر متنكّر.. ابتلعتُ كذبته واغتنمتُ فرصة مناداتها وتبادل التحايا معها، كانت رقيقة ومهذبة وعذبة، وكنتُ متلعثمًا.. كعادتي..

منذ ذلك اليوم وأنا ظلٌّ آخر لها، حفظتُ جدولها عن ظهر قلب، أجلسُ بالقرب منها، أئتنس بحضورها، أراقبها عن بعد بين رفيقاتها، أتتبعها في طريق عودتها إلى البيت، حتى جاء يوم تشجعتُ فيه على إلقاء التحية بعد هبوطها من الترام، هزت رأسها في خجلٍ وعلى عجلٍ كي تتخلص من الموقف، لم أمهلها واقتربت منها حتى صرتُ بمحاذاتها، طلبتُ منها أن تسمح لي بمرافقتها سيرًا

حتى بيتها، شعرتُ بغضبها واندفع الدم إلى وجنتيها فازدادت جمالًا، قالت في ارتباك وهي تعتذر إنها لا تستطيع ذلك، فابتسمتُ وأنا أحاول التصديق على نيتي الحسنة وهي السير بمحاذاتها، ولكن على الرصيف الآخر فحسب، لم تشعر بالاطمئنان وبدأت تُلملم خيوط الأسبوع السابق من وجهي الذي يطاردها في كل مكان، أخفت اضطرابها ومضت في طريقها وأنا على الجهة المقابلة أتأمل خطوتها في تنورتها الرمادية الضيقة والتي تُغطي ساقيها حتى ما قبل كعبيها بمسافةٍ صغيرة وذلك الشقُّ في الخلف مرتفعًا إلى ما بين ركبتيها كاشفًا حد الجورب الشفاف ملفوفًا لا حول له ولا قوة حولَ قالبين من الشمع الأبيض، تمشي مسرعةً غاضبةً يطير شعرها خلفها بينما يتعلق اسمها بلسانك المتلعثم مع كل خطوةٍ تخطوها، كالذِّكر: آن..آن..آن..

«من السهل أن تقاوم في البداية على أن تقاوم في النهاية».. بعد أسبوع أدمنتَ فيه رؤيتها وسماع صوتها، ومراقبة تنقلها كالطير من مكان إلى مكان، من الصعب أن يصيبك حرمانٌ مفاجئ منها قرابة أسبوع آخر، كان الأمر أشبه بموتٍ سريريّ للقلب بين الجوانح، والتي راحت تظهر لك في كل مرآة كشواهدَ قبور متراصة تحت جلدتك.. عندما وطئت قدمي المدرجَ باحثًا عنها ولم أجدها تذكرتُ آخر دمعةٍ ذرفها جسده المصلوب في فيلم «آلام المسيح» وكيف تحول العالم فجأة إلى صحراء مجدبة منزوعة الحياة..

لم تكن بطولة الجمهورية في «العدْو» هي ما جعلتها تتغيّب فحسب، لأنها بدت مهزومة ولو عادت فائزةً بالكأس، كانت تلك معلومة جديدة تمامًا عن «آن»، عدّاءة.. ممَ تهربين يا آن؟ أو إلامَ تذهبين؟ ولكنني أرى تقلّب قلبك جيدًا في عينيك وفي حركتك المتثاقلة غير المعتادة وفي شرودك وفي غياب الثور الأحمر عنكِ، شيء ما لا أراه يمتصُّ حيويتك!

في المكتبة، أبصرتُها تجلس بصحبة كتاب، يطوق رقبتها الرخامية سوارٌ مجدول بثلاثة ألوان ذهبية ونحاسية وفضية، ترتدي قرطًا مثل دمعة العين يُرى كنجمة بعيدة مثبتةً في قطعة العجين الشهية الطرية، يبرق بياضها من تحت سترةٍ سوداء عارية الصدر تضمُّها سترة أخرى تكسو ذراعيها، تحدّق إلى ذلك النور الذي لا تدري من أين يأتي.. تحاول ألا تنظر فتفشل، تقتحم وحدتها ولا تعطيها فرصة للترحيب أو الرفض، تحاول أن تقول لها طيلة الوقت بعينيك الزائغتين: «لو تعلمين بما أُجنُّ من الهوى...لعذرتِ أو لظلمتِ إن لم تعذري»..

«أنا أحبُّك يا آن»، قلتُها دون لعثمة، قالت إنها سئمت الحب ولم تعد تثق بأحدٍ، وما زالت تعاني تجربة أسامة، قلتُ: أنا لا أريد شيئًا، قالت: هو ظلمٌ لك، قلتُ: أرضى، قالت: ليس لك عندي سوى الصداقة، قلتُ دامعًا: أقبَل..

«ليس هو الفنان من يرى الأشياء كما تبدو في الحقيقة، لو فعل فالأولى به أن يتوقف عن الرسم»..على بوابة المكتبة، تبادلنا أرقام الهواتف، كنتُ مأخوذًا بموافقتها دون الالتفات إلى ملامحها العابسة، كالمُرغمة على تواصُلٍ لا تريده، وعندما غادرتني بعد مصافحةٍ قصيرة جدًّا شددتُ فيها على يدها ولم تُظهر فيها أدنى ترحيب، تجاهلتُ شعوري بالإهانة والتمستُ لها العُذر، ثم برزت تلك الصورة المثيرة أمامي: لما لا أبتر ساقَي حبيبها الوغد وأستخدمهما كساقين إضافيتين مثل مهرج السيرك العملاق على أن تكون «آن» كل جمهوري؟!

«الفنان هو ذلك الشخص الذي يصنع أشياء ليس للبشر حاجة في امتلاكها..»

بعد مرور عام، صارت «آن» أكثر حيوية، وبدأت تتقبل التصاقي بها، صارعتُ حزنها وذكرياتها العالقة من أجل أن تبتسم لي فقط، لا بل كي تسترجع ابتسامتها من جديد، لم أجد حرجًا في تقديم لوحة تحمل رسمًا لها أمام الجميع في عيد الحب، ثمّ قضيتُ يومًا بين سيولٍ ووحول قبل عيد ميلادها وأنا أبحث عن قطع الورد المجفف لأزهارٍ نادرة لدى خواجة يوناني في وسط البلد، ونثرتُها حول خاتمٍ من الفضة في صندوق صغير صنعتُه

خصيصى لها يحمل رسومًا مطبوعة من صورٍ عديدة لـ«آن»، مع صندوقٍ آخر يضم دودة قز نائمة فوق ورق التوت، كانت مفاجأة كبيرة لها ولن أنسى ما قالت لي في هذا اليوم ما حييت:

«كنتُ من هواة تربية دود القز.. ما زلتُ أتذكر الرجل الذي كان يبيعُنا إياها أمام باب المدرسة واصطفافنا لشرائها، نتسابق في اختيار الجيد من العلب الورقية ونتأكد أنها محكمة الغلق من أسفل ومن وجود ثقوب من أعلى تسمح لها بالتنفس، نتلمّس ورق التوت الأخضر النَّضِر منه والذابل.. وترقد الدودة الرخوة في بيتٍ ورقي غير آمن، بقطيفتها المخملية التي تُصيبني بالقشعريرة، من أناملي حتى خصلات شعري، أحملها بين يديّ كأنما أحمل كنزًا..أحمل حياةً.. لا أدري كيف سيؤول هذا الكائن الدقيق في أسابيع قليلة إلى فراشة جميلة تحلق حولي؟ لكنها تبدو في طورها الأرضي جميلةً أيضًا.. يعجبني سعيُها وكثرة إقدامها وحرصي عليها من التأذّي.. يعجبني أنها معي وأن أراها تلتهم طعام التوت، يعجبني صمتها ورضاها بالبيت غير الآمن واستسلامها لطفلة صغيرة مثلي تربيها.. لم تشكُ من برودة ما حولها ولم تتذمر من الطعام الواحد ولم تبالِ بعراكنا وأصواتنا العالية التي تزلزل جدرانها الورقية..

أتدري، لا أذكر تحديدًا شكل يرقتي الأولى وهي تحيط نفسها بشرنقتها.. تلك القيود الحريرية.. بأي لون كانت؟ لم أفكر وقتها ما الحكمة من ذلك.. ولم أستغرق كثيرًا لأُشبِع النظر من ذلك الكائن العجيب الذي يتحول تدريجيًّا من زاحف إلى طائر، وفي كيفية تحوّل القضبان إلى أجنحة!».

تابعتُ كلماتها في ذهول من رقتها وحكمتها ثم قلت: «عندما تصير قضبان اليرقة أرديةً للملوك، وتصير قضبان العنكبوت شبكة صيد لا بدَّ أن نتوقف طويلًا أمام تلك الحكمة.. السر في النسّاج وليس النسيج..»..

«القاعدة الذهبية هي أنه لا يوجد قواعد ذهبية»، في العام التالي، وفي اليوم الدراسي الأول، بدأتُ أنهل السحر من «آن»، هاتفتُها عندما تأخرَت عن الحضور إلى الكلية، قالت: إنها لن تأتي اليوم، شعرتُ بخيبة أمل وأنا بين غياضٍ من الأحزان التي هبطت كلها دفعةً واحدة..

بعد عدة خطوات وجدتُها تداهمني من خلفي، عادت «آن» طفلةً، لم ألح كعادتي كي أقتنص منها كلمةً بُحتُ بها آلاف المرات، ويا لعجبي! قالتها «آن» دون طلبٍ مني، قالت: «أحبك وأفتقدك»، لي أنا وحدي، هكذا وببساطة، كدتُ أذوب أمام ناظريها، لكني لم أشعر بالخوف قط مثلما شعرتُ به في تلك اللحظة، هل تحبني «آن» فعلًا؟ هل يتحوّل نفورها مني منذ يومنا الأول إلى

حُبٍّ؟ بدأت أسترجع هواجسي القديمة: وإن كنتَ مدركًا هكذا لصدودها المبكّر عنك، لماذا كرستَ روحَك من أجلها إذن؟، هل كان لخبر خطوبة «أسامة» تأثير فيها؟ هل كان لا بدَّ أن تظل «آن» بعيدة ومستحيلة؟ شكوك تساورُني لا أستطيع أن أخلُص منها، أكتشف أنني على بُعد خطوةٍ من تحقيق أحلامي.. ولكنني غير واثق الآن أنها بالفعل أحلامي!

هو الخوف حقًّا؟! أريد شيئًا واحدًا الآن: تسقيني أمي جرعةً من الماء البارد لتطرد الخوف من كابوسي المزعج في جوف الليل فأغمض عينيّ وأعود لنومى فأهزم الثور الأحمر الناري، الثور وحيد القرن مثل «يوني كورن» وله رأس مألوف جدًّا.. رأس «آن»!

«قَصّ» الأثر

أُحاولُ غَسْلَ يديّ جيدًا بالصابون، وكالعادة استخدم «البَرْوة» الملقاة على الحَوض البيضوي فلا تجود برغوتها مهما أُقلّبها في الماء، شعور منتقص بعدم الاكتفاء غير راضٍ ألبتة يجعلني ألجأ إلى علبة الصابون السائل المثبتة بجوار الحوض، برائحة جوز الهند وبرغوةٍ غزيرة لزِجة لا تبرح الجلد إلا بعد معاناة حكِّ اليدين عدة مرات.. أعتني بالإبهامين اعتناءً خاصًّا، وأدعك أظفاري في كل راحةٍ بالتبادل ولن أنسى الرسغين.. أرى صورتي في مرآة يصرّون على وضعها في غرفةٍ لا يريد من فيها أبدًا رؤية أنفسهم.. تقع عيني على اللؤلؤ الذي أتممتُ ارتداءه على عَجَلٍ وأنا أهبط السُّلم قبل مغادرة البيت.. العقد والقِرط والسوار حتى الخاتم.. كل شيء متناغم ومتسق ومتّفَق عليه.. أبتسم في المرآة وأنا أسترجع صورة الرجل الغريب الذي اقتحم محارتي فأفرز لؤلؤاتي.. أسحب المنديل الثاني الملفوف لا الأول المتدلي المتوفر لتجفيف اليد، وسأحرص ألا ألمس سطحًا ملوثًا ولا حتى صنبور المياه عند إغلاقه.. كل شيء ملوث.. أرتدي القفاز المُعَقَّم وسأستعد لمقاومة

شعور قوي بالحَكّة سأعاني منه طوال اليوم بسبب بودرة القفاز الطبي.. حان الآن وقت الابتسامة العريضة النظيفة فوق وجهي!

كل شيء في مكانه وجاهز للقيام بدوره المنوط به.. المريض في لباسه الأخضر ينتظر.. يحاول أن يستتر تحت الغطاء الأبيض.. تصطك أسنانه رُعبًا.. الشابة الجميلة الباكية تريد أن تبقى.. تجبرها الممرضة على الخروج، وبلذةٍ بَدَت بوضوح على وجهها قالت: ممنوع، وأحكمت إغلاق الباب.

«لا تقلق سنبدأ بالمخدر الموضعي فلن تشعر بشيء».

جملة متكررة أؤديها باحتراف، أنتظر ردة فعل متوقعة تمامًا:

«مخدر للشاه قبل ذبحها؟!»

كلكم يُظهِر الحكمة في تلك الحجرة.. على السرير ذاته.. من المؤكد كذلك أن جميعكم يرحل عن هنا ثم يعود مرة أخرى أكثر حكمةً.

لا يهم.. سأستمر في الابتسام.. بل سأضحك على نكتة الشاه.. أتحسس الآن عظمة «القَص» في منتصف صدر الشاب النحيل، حان الآن وقت «قراءة الطالع»! ولكني وكما قال الشاعر: «أحتاج دمع الأنبياء لكي أرى»، «قُصي» علينا يا سيدتي من أمرِ الأسمر.. تهبط أناملي درجةً.. درجة إلى أسفل على جلده البنيّ اللامع، حتى الوصول إلى الجزء المنشود.. النتوء العظمي

الملقّب بالرّهابي! من فضل الله أنهم لا يسألون أبدًا عن اسمه.. ها هو تحت سبابتي تمامًا.. هنا نبدأ – بعد التعقيم والتخدير – أعمال الحفر والتنقيب..

«هل اليوم هو الثلاثاء؟» سألتُ المريض المرتعش والذي يخفي شحوبَه سمارُه وأنا موقنة بالإجابة.. «أجل.. اليوم هو الثلاثاء».. قالها بسخريةِ من يريد أن يقول: وهل هذا وقته؟ أعرف أنها محاولة خائبة مني لتشتيته.. لكن ماذا عساه يفعل الطبيب أمام كل هذا الهلع؟ أودُّ لو أشرح للشاب المرتعد كيف نجحت نصيحتي لمريض كان يعاني تضخم البروستاتا.. في الحقيقة لم تكن تلك معاناته.. بل كانت في عدم قدرته على التبول.. علّمتُهُ كيف يلعب «السودوكو» جالسًا في دورة المياه وعندما ازداد التضخم وكان قد حَفِظ نماذج اللعبة كافة، علّمتُهُ «الكاكورو» الأطول والأصعب..من المفيد أن يتعلم الآدمي الصبر ولكنه كذلك في حاجة إلى تعلُّم عدم الانتظار..

من الضروري أن يدير وجهه كيلا ينظر إلى سيخ حديد مدبّب ينغرز في عظمِه ولا بد من تفقّد مدى حدة السِّن التي يكفل لي دخولًا سهلًا وخروجًا آمنًا من تلك الفَعلة التي يراها الشاب ذبحًا له، «هل تحب يوم الثلاثاء؟»، جاوب متململًا: «لا.. أكرهه.. أكرهه جدًّا»..

«وأنا أيضًا.. منذ أيام المدرسة.. كان أطول أيام الأسبوع.. تسع حصص!».

الدخول في خطٍّ مستقيم، يمينًا ويسارًا وبدفعٍ إلى أسفل.. هل هكذا تعمل «برّيمة الحفر»؟ أحاول أن أجد شيئًا مشابهًا بيني وبين مهندس البترول، العريس الأخير.. أعاني ضعفًا مزمنًا في قبضة يدي.. لا أقدر على التمسّك بشيء.. وهو مرضٌ عضال لا شفاء منه.. ولكنه لطيفٌ مع المرضى الذين لا يشعرون بألم من إثر قبضتي الضعيفة تلك.. لطيفٌ أيضًا مع البشر الذين لا يشعرون بي.. قال لي يومًا ما مهزومًا: أنا شخص سيئ الطباع، ويتمسك فقط بكل ما هو أدكن وساخن! منذ ذلك التاريخ -ومن بعده- لا أذكر أنني تمسكت بشيء سوى القهوة!

أشعر بمعاناة المريض مع الحيرة فلا يستطيع ألا ينظر إلى ما أفعله بجسده، وليس بمقدوره ألا يتخيل كونه - فعليًّا - لا يشعر بألم، أعرف جيّدًا ما يدور برأسه وهو يحاول أن يغض الطرف عن السِّن التي غابت في لحمه والهواجس كافة التي تتعلق باختراق قلبه ونزفه حتى الموت، أشرد أنا أيضًا «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه»، في رجلين زعموا أن لكل منهما قلبين، وفي الاعتقاد الجاهلي بأن القلب محل العقل، الآية التي لا علاقة لها بعدم قدرة رجل على حب امرأتين في وقت واحد.. وَلكَم هو مريحٌ أن نفسر تلك الآية تفسيرًا خاطئًا..

السن عالقةُ الآن في العظم، مثلما عالقة أنا في الماضي.. سأجذبه من داخل الحقنة وأمتصُّ النخاع، لا بدَّ من تنبيهه بما سيشعر، انسحابٌ ما، هذا المريض ملهِم، للمرة الأولى أفهم لماذا أعشق مهنتي؟ ها هي آهة الانسحاب الأخيرة قبل أن ينتهي كل شيء، وكم أغبطك أيها المريض! فلربما انتهت مأساتك بشفاء أو بموت.. هذا منصف جدًّا.. ولكن من أين تأتي تلك الأغنية؟ «في قلب الليل.. وعزف الصمت مِتْهادِي كموج النيل.. في قلب الليل.. وبرد الخوف بيتكتِك سِنان الخيل».. يريد المريض أن يرد، لن أدعه يفعلها.. «وما في حد في الشارع.. سوى مُهرة رباب جازع.. في شجرة سنط.. وأنا والصمت.. وبرد الليل وخوف الليل..».. أرجوك أوقف تلك المعاناة! وانزع عني هذا السكين!

فاضت بعض الدماء من القناة التي صنعتُها في جسد مريضي، سأضغط على الجرح حتى يتوقف الدم، لا تخف، هذا مؤقت، ستنسى كل شيء، هكذا يقولون.. عندما جُرح إصبعي جرحًا قطعيًّا نصحني بوضعه في الماء المملح: فقط تحملي الألم وسيندمل الجرح سريعًا.. مريضي العزيز لن أخبرك أبدًا بأن الشيء الوحيد الذي لا وجود له هو النسيان!

ضمادة بيضاء.. أغطية بيضاء.. معاطف بيضاء.. ذاكرة بيضاء!

قُم إلى فتاتك وانتظِر نتيجة الفحص..

«أنا أيضًا أكره يوم الثلاثاء بشدة..».. قلتُها له قبل أن يفارق الغرفة فنظر إليّ باسمًا ومتعجبًا: «شكرًا دكتورة رباب مرة أخرى.. لم أشعر بألم»..

«هل كان المخدر ذا جدوى قبل الذبح؟»

ضحك مريضي الأسمر فاتحًا الباب فأضاءت أسنانه البيضاء وجهه وظِل فتاته ينتصب من خلفه.. يدق هاتفه بالأغنية ذاتها فتغيب عن الحاضر ببطء وهو يغلق باب الغرفة بينما تتشبث الفتاة بذراعه، أخلع القفاز المُدمّم وأنظر في المرآة فأجد ما لا أريد رؤيته، وأغسل يديّ بالبروة مرة أخرى، فلا أشعر بالرضا كالمعتاد، تلتصق بي لزوجة جوز الهند وأنا أُردِّد بقية الأغنية في حضرة الغياب الذي لا يغيب: «وكان في جيده قيد جارحه.. وقيد في جيدي ما لمحه.. لكن حاسُّه.. أكيد حاسُّه»...

فهرست

الموضـــوع	الصفحة
بيت اللوز	٥
الزائر الجديد	١٣
مانوليا	١٩
عقد كهرمان	٣٢
في الغرفة السحرية	٣٨
قاهر ناچا	٤٣
الحواية	٥٣
وحياة قلبي وأتراحه	٥٩
مدينة لا ترى القمر	٦٧
ما عرفه السيد چون	٧٦
باب سدرة	٨١
استغماية	٩١
قص ولصق	٩٧

قطر الندى الأحمر ١٠١
فولي بيرچير ١١٩
سقف السعادة ١٢٤
الحب والعصف والريحان ١٣٠
شق الكوبري ١٣٧
شدي حالك ١٤١
بحار أحادية الشطآن ١٤٩
ظل الخوف ١٥٨
قص الأثر ١٦٩